المنظمة العربية للترجمة

جان- جاك روسو

هواجس
المتنزّه المنفرد بنفسه

ترجمة

بولس غانم

بالتعاون مع اللجنة الوطنيّة اللبنانية لليونسكو

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

لجنة الفلسفة:

يوسف تيبس (منسقاً)

فتحي المسكيني

عز الدين خطابي

فضل اللّه العميري

نجيب الحصادي

المنظمة العربية للترجمة

جان-جاك روسو

هواجس
المتنزّه المنفرد بنفسه

ترجمة

بولس غانم

مراجعة

المنظمة العربية للترجمة

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
روسو، جان-جاك
هواجس المتنزّه المنفرد بنفسه/ جان -جاك روسو؛ ترجمة بولس غانم؛ مراجعة المنظمة العربية للترجمة.
192 ص. - (الفلسفة)
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-614-434-077-6
1. الفلسفة. 2. التفكير. أ. العنوان. ب. غانم، بولس (مترجم). ج. المنظمة العربية للترجمة (مراجع). د. السلسلة.
100

"الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة"

Jean-Jacques, Rousseau
Les rêveries du promeneur solitaire

المنظمة العربية للترجمة

بناية" بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 113-5996
الحمراء - بيروت 2090 1103- لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: "مرعربي" - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، تشرين الثاني (نوفمبر) 2015

المحتويات

تصدير

يسر اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو بالتعاون مع المنظمة العربية للترجمة أن تعيد إصدار كتاب **هواجس المتنزه المنفرد بنفسه** الذي يندرج ضمن سلسلة الروائع الإنسانية التي تمّت ترجمتها وإصدارها في ستينيات القرن المنصرم في إطار مشروع ترجمة الروائع.

يُعتبر جان جاك روسو أحد كبار المجددين في الفكر والأدب في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، ولعل من أهم مظاهر التجديد في فكره هو أنه أعاد الاعتبار للكائن الفرد الذي يكتسب قيمته من ذاته وليس من الجماعة أو من الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وأنه وضع الأنا أو الذات الفردية في مكانة محورية داخل العمل الأدبي. إلى ذلك، تميزت آراؤه في التربية والسياسة والاجتماع بالتأكيد على ضرورة تحقيق العدالة والمساواة بين البشر وعلى ضرورة اعتماد أساليب تربوية تحترم الميول الفطرية لكل فرد وتتناسب مع قدراته الذاتية. ولعل كتابه "هواجس المتنزه المنفرد بنفسه" الذي صدر بعد

وفاته يمثل عصارة فكره من جهة، ويلخص تجربته الحياتية، من جهة أخرى؛ يتألف الكتاب من عشرة فصول – نزهات– امتدت كتابتها على مدى سنتين 1776-1778، وتجمع بين أدب السيرة الذاتية والتأمل الفلسفي.

يرى روسو في مؤلفه هذا أن السعادة البشرية لا تتحقق إلا بإعادة اللحمة بين الإنسان والطبيعة مما يستدعي الابتعاد عن صخب المجتمع، واكتشاف متَعة التأمل في أحضان الطبيعة والإصغاء لكل تفاصيل ومظاهر الحياة فيها.

بعد مرور عقود طويلة على صدوره لا يزال هذا الكتاب يتمتع براهنية كبيرة، خاصةً وأن هناك ضرورة ملحة في عالمنا المعاصر لتعزيز ثقافة تقوم على احترام البيئة والحفاظ على الموارد الطبيعية، وأن هناك حاجة متزايدة لدى الإنسان للتحرر من ضغوطات المدنية الحديثة والاستعاضة عن متعة الاستهلاك بفرح المشاركة.

الأمينة العامة للجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو
البروفسور زهيدة درويش جبور

نُشر هذا الكتاب في ترجمته العربية
بالاتفاق بين
اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ببيروت ومنظمة اليونسكو بباريس

وفقاً لأحكام منظمة اليونسكو وقانون اللجنة

قرأ هذه الترجمة لكتاب

جان-جاك روسو

هواجس المتنزّه المنفرد بنفسه

خليل رامز سركيس



جان-جاك روسو

(عن منقوشةٍ حُفرت في السنة التالية لوفاته)

مدخل

هذا هو الكتاب الرابع لروسو، الذي تهتم اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع بنشره في ترجمة عربية بعد توليها ترجمة **العقد الاجتماعي وأصل التفاوت بين الناس والاعترافات**.

في الكتابين الأولين اختارت اللجنة أن تقدم للقارئ العربي جان-جاك روسو في معالجته لقضايا سياسية واجتماعية مهمة عن طريق البحث والتنقيب والتأليف. أما في **الاعترافات**، وقد نقلها إلى العربية الأستاذ خليل رامز سركيس ونشرتها اللجنة في العام المنصرم، فقد أدخلت اللجنة هذا القارئ إلى قدس أقداس الإنسان روسو في كشف ما خفي من سيرته وأحاسيسه ومواقفه من الناس والمواضيع والأشياء. وهي اليوم، إذ تنشر **هواجس المتنزّه المنفرد بنفسه**، فهي تواصل تعريف قرّاء العربية بمكنونات هذا الإنسان الغريب والمتميز في أطواره وتصرفاته وتصوراته، ولاسيما في السنوات الأخيرة من حياته.

بدأ روسو بكتابة هذه الهواجس في العام 1776 وانتهى من

المخطوطة بعد سنتين ثم أدركته المنون في الثاني من تموز/ يوليو من العام عينه 1778. إنما هذا الكتاب لم ينشر بالطبع إلّا في السنة 1782، متزامناً مع صدور **الاعترافات** في جزئها الأول، وبانتظار أن يصدر الجزء الثاني لها في العام 1789.

تواريخ يجب ألّا تغيب عن بالنا ونحن نتكلم عن الكاتب الكبير جان-جاك روسو. أبصر النور في مدينة جنيف في العام 1712 طوال سبع سنوات (1735-1741) عاش هذا الأديب أجمل أيام شبابه خاصة وحياته عامة بتعرفه إلى السيدة دو فارينس وإقامته عندها وفرقته عنها فترة قصيرة ثم العودة إليها. وفي هذا يقول في آخر الكتاب: "لقد قضيت حوالي سبعين سنة على هذه الأرض غير أني لم أعش منها إلّا سبعاً".

علاقاته مع النساء وتنقلاته العاطفية عديدة كان لكلّ منها أثر في حياته وفي كتاباته. في العام 1745 تعرّف إلى السيدة تيريز لوفاسور ورزق منها ولداً كان الأول من أولاد خمسة اختار إدخالهم جميعاً إلى دور "الأولاد اللقطاء" وسوَّغ، في ما بعد، عمله حيال منتقديه لتصرفه على هذا الشكل. في العام 1768 عقد زواجاً مع تيريز وظلت قربه حتى آخر حياته.

تنقلاته بين سويسرا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا وغيرها كانت تفرضها عليه ظروف إقامة قاسية حيث هو، وأوامر طرد أو إبعاد. علاقاته مع الناس، كبارهم من ذوي النفوذ والشهرة الأدبية، كانت دوماً صعبة ومرتبكة. لم يكن يثق بأحد، وتصور أن هناك مؤامرة عامة تحاك حوله، ولقد صدرت العديد من الكتابات ضده فأجاب عليها

بأعنف مما ورد فيها، وكانت له مناظرات مخاصمة مع ديدرو وفولتير ودالامبر وهيوم كي لا نطيل في السرد بإضافة أسماء بعض المتنفذين إلى اللائحة.

جميع كتبه تقريباً أثارت حملات عليه تمثلت بكتابات قاسية وبمنع لصدور مؤلفاته في بلد معين أو بدخولها بعض بلدان أخرى. ونذكر بين أهمها عدا **العقد الاجتماعي** و**أصل التفاوت بين الناس** و**الاعترافات**: **جولي أو أيلوييز الجديدة** (رواية عاطفية)، كتاب **إميل** في شؤون التربية والتنشئة. ولقد بلغت بعض المواقف ضده إلى حد إصدار أوامر باعتقاله نُفّذت أحياناً بالفعل وأحياناً أخرى اضطرته للجوء إلى حماية بعض الوجهاء أو الهروب إلى بلدة أو منطقة أخرى.

وبما يتعلق بالكتاب موضوع هذه الترجمة نذكر أنه يظهر المؤلف إنساناً قلقاً متأزماً، وعلى حد قول الأستاذ خليل سركيس، مراجع الترجمة ومترجم **الاعترافات**: "لقد تقلّب روسو على واقع الأمور تقلّبه على الأخيلة فكان بين هذه وتلك في فوضى سيرة مصطرعة القوى، متنازعة الرغبات". أزمة الخوف والحذر عنده مردها إلى ما عاناه أو صور له أنه يعانيه من ضروب الاضطهاد تنزل به عمداً من كلّ صوب فيغرق في السويداء الشاملة. وهو، في براءة رأيه في نفسه، قد يكون صنع القليل من الخير، لكنه في حياته كلها لم يفكر بصنع الشر.

ومع هذا فقد عامله الناس على أنه مصدر للشرور. عندها، لم يكن يجد مخرجاً لهذه الأزمة النفسية، وهمية كانت أو واقعية، إلّا بالهروب إلى الوحشة والوحدة، إلى النزهات في أماكن لا يرتادها الناس وينصرف إلى "أحلامه" التي اعتمدنا تسميتها "هواجس" لما تتضمن من تعبير عن

قلق واضطراب، وإلى التلهي بالموسيقى والاهتمام بعلم النبات حتى "مغازلة" الحشائش والأزهار في جزيرة سان بيار الموحشة. النزهات التي كان يقوم بها "حالماً" كانت تستثير عنده مشاعر عميقة ملأى بـ "الهواجس". كان يتلذذ بالنزهات لأنها توافق كسله الجسدي من حيث الابتعاد عن كلّ عمل مصمّم، وتتناغم مع غزارة مخيلته وتدفق رعشاته.

الهواجس كتبها، كما كان يصرّح "له وحده"، آملاً أن تعزيه قراءة مخطوطتها في شيخوخته إذ تمكنه من العيش بزخم مع نفسه، يترافق وإياها وكأنه برفقة صديق أصغر منه سناً. لم يكن يكتبها كي يقرأها غيره وهو حي (وقد رأينا أنها لم تنشر إلّا بعد انقضاء أربع سنوات على وفاته)، كتبها وكأنه لا يعبأ بمصير هذا الكتاب. لقد دوّنها ليقول للأجيال اللاحقة إنه يرى نفسه في نهاية حياة بريئة وتعسة... وحيداً معزولاً... شاعراً أن صقيع الثلوج الأولى يقترب... وهو يتساءل: ماذا فعلت على هذه الأرض؟ فيسمع صدى جواب ينقله إلينا بهذه الكلمات: إني ولدت لأعيش ملء الحياة، غير أني أموت من دون أن أكون قد عشت. ومع ذلك فقد نقلت سلطات الثورة الفرنسية رفاته إلى "البانتيون" مدفن عظماء فرنسا، بعد ست عشرة سنة من وفاته معتبرة إياه أحد كبار المفكرين الممهدين للثورة.

كتاب الهواجس يقرؤه بشغف ولذّة كلّ متذوق أدب عامة، وكلّ معجبٍ بأدب روسو وشخصيته خاصة.

مترجِم الكتاب هو الفقيد بولس غانم، المولود في بكاسين في قضاء جزين بلبنان في أواخر القرن الماضي والمهاجر بعدئذٍ إلى مصر

حيث درس العربية في معهد الآباء اليسوعيين بالقاهرة طوال ثلاثة عقود. ثم عاد إلى وطنه لبنان حيث توفي في العام 1968. له ديوان شعر رقيق بعنوان **الوفاء**، وكانت ترجمة **الهواجس** آخر ما كتبه. وإن اللجنة اللبنانية بنشرها لترجمة الروائع بالتعاون مع منظمة اليونسكو بعد خمسة عشر عاماً من إنجازها، تحيي ذكرى الإنسان الطيب بولس غانم والقلم المتين الرهيف. وهي تشارك المُراجع الدقيق الكفوء خليل رامز سركيس ما قاله في خلاصة تقريره للجنة عن الترجمة: "إن الأستاذ المترجم قد وقف على أبعاد مؤلف روسو فأدّاه بأسلوب عربيّ سهل واضح يرقى، في أغلب الأحيان، إلى مستوى الأصل روعة وجمالاً".

فلنُقدِم على قراءة هذه **الهواجس**. لقد أحدثت تأثيرات ملحوظة على روائع أدبية لحقتها بأقلام فذة من أمثال أقلام برناردان دو سان بيار وغوته ولامارتين وشاتوبريان وهوغو وميشيله وجورج ساند والعديد غيرهم من مشاهير الكتاب. وإننا لواجدون فيها متعة لنا، معنى وحسن أسلوب، ومناسبة لمشاركة إنسان عاش إنسانيته أديباً كبيراً، عميق الفكر، ثائر الشعور، ومتألماً معذباً، قريباً من كل قلب.

م. أ.

بيروت، 20 تموز/ يوليو 1983.

النزهة الأولى

ها إني قد أمسيت وحيداً على الأرض، فلا شقيق بعد اليوم، ولا قريب، ولا صديق، ولا عشير لي سواي.

إن أكثر الناس ألفة وأخلصهم حباً لبني الإنسان قد أجمع الناس على نفيه عن المجتمع. ولقد تفننوا في بغضائهم فالتمسوا شرّ عذاب يمكن أن ينزلوه بنفسي المرهفة الإحساس، فقطعوا جميع الصلات التي كانت تربطني بهم. لقد كنت أحب الناس على الرغم منهم، فلم يستطيعوا أن يتملصوا من حبي إلّا بتجردهم من الإنسانية، وهكذا أضحوا غرباء مجهولين، بل أصفاراً في نظري، لأنهم أرادوا ذلك. ولكن من أكون أنا وقد تجردت منهم ومن كلّ شيء؟ هذا ما يتعين علي البحث عنه. ومما يدعو إلى الأسف أن هذا البحث يجب أن تسبقه نظرة في موقفي. وهذه فكرة لا بدّ من أن أمرّ بها كي أصل منهم إليّ[1].

---

(1) هذه الوقائع تعود إلى تاريخين على الأرجح: الأول شهر حزيران/ يونيو سنة 1762 يوم اضطر روسو إلى الهرب من مونمورنسي بعد نشر كتابه إميل، والثاني في شتاء سنة 1757-1758 يوم تم انفصام عرى الصداقة بينه وبين أصدقائه، مما ولّد عنده فكرة "المؤامرة".

لقد مضى علي خمس عشرة سنة أو أكثر وأنا في هذا الموقف الغريب الذي ما يزال يبدو لي، كأنه حلم، ويخيل إليّ دائماً أن بي عسر هضم يشتد في تعذيبي، وأني أنام نوماً مزعجاً وأني أستيقظ وقد خفّت آلامي إذ أجد نفسي، مرة أخرى، مع أصدقائي. أجل لا شك في أني قد قفزت من اليقظة إلى المنام أو من الحياة إلى الموت وأنا لا أشعر(2). ولست أدري كيف سللت من نظام الأشياء فدفعت إلى اختلاط يتعذر فهمه، لا أستشف من ورائه شيئاً، وكلما زدت تفكيراً في حالتي الحاضرة قلّ إدراكي لما أنا فيه.

وكيف كان يمكن أن أتنبّأ بالمصير الذي ينتظرني؟ وكيف أستطيع أن أدركه اليوم أيضاً وقد أسلمت إليه؟ أكان يمكنني، على ما بي من إدراك سليم، أن أفترض - وأنا هو الرجل نفسه الذي كان ولايزال هو نفسه - أني سأعد مسخاً ومسمماً وسفاكاً، وأني سأصبح موضع استفظاع النوع الإنساني، وألعوبة بيد الغوغاء وأن تحية المارة لي ستكون البصق علي، وأن جيلاً بأكمله ستجتمع كلمته على أن يلهو بدفني حياً؟ ولماذ نشبت هذه الثورة الغريبة المفاجئة، تضعضعت، بادئ بدء، لهول المفاجأة، وغاص بي اضطرابي واستنكاري في لُجة من هذيان لم يهدأ طوال عشر سنوات. لقد تنقلت خلال هذه الحقبة من خطأ إلى خطأ، ومن ضلال إلى ضلال، ومن حماقة إلى حماقة، فكان من بعدي عن الفطنة والاحتراز ما يسرت به لقادة مصيري وسائل كثيرة ذرعوا بها لكي يحددوا هذا المصير إلى الأبد.

---

(2) هذه على الأرجح إشارة إلى الهذيان الذي أصيب به في إنجلترا والذي يعود تاريخه إلى سنة 1767، أي بعد قطعه علاقاته بديدرو وجريم بعشر سنوات.

ولقد طالما قاومت بعنف، ومن دون جدوى، إذ كنت بنأيٍ عن الحذق والحيلة وعن الفطنة والتعمية، كما كنت صريحاً ظاهر الطوية، جزوعاً متسرعاً، فزاد تخبطي في مقاومتي في شدّ وثاقي، وهيأ لهم فرصاً أكثر مؤاتاة انتهزوها للنيل مني.

ولما أحسست بعد لأي، أن مجهوداتي تضيع عبثاً وأني أذوق العذاب بلا جدوى، اتخذت القرار الوحيد الذي لم يكن لدي سواه وهو أن أستسلم إلى مصيري وأن أحجم عما كانت الضرورة تدعو إليه، وقد وجدت في هذا الاستسلام تعويضاً عن جميع أوصابي بما أعاده إلى نفسي من سكينة ما كانت لتتم لي وتتفق مع العمل المستمر الذي تستدعيه مقاومة شاقة بقدر ما هي عقيمة.

وهناك شيء آخر شارك في إعادة هذه السكينة إلى نفسي. فإن مضطهديَّ - رغم تفننهم في بغضائهم - قد أهملوا عامل تعذيب أنستهم إياه عداوتهم، ذلك هو أن يدرجوا مفاعيل هذا التعذيب تدريجاً منسقاً كي يمكنهم أن يُذكوا وأن يجددوا آلامي بلا انقطاع فلا ينفكون يُنزِلون بي إصابات جديدة. ولو أوتوا بعض اللباقة فتركوا لي بارقات من أمل لاستطاعوا أن ينالوا مني بما تركوه، ولأمكنهم إلى اليوم أن يجعلوني ألعوبة في أيديهم بالتلويح بأمان كاذبة، وأن ينزلوا بي بعد ذلك غماً جديداً بما ألقاه من خيبة أمل. على أنهم استنفدوا في مرة واحدة جميع ما لديهم من موارد، فإن القذف والتشنيع والتحقير والخزي والعار، كل هذا الذي خلعوه علي، قد بات لا يحتمل زيادة ولا تلطيفاً، فأصبحت في عجز وأصبحوا عاجزين، فلا هم يستطيعون عمل المزيد ولا في استطاعتي التملّص مما أصابوني به. أجل، لقد تزاحموا على ملء

مكيال حقارتي حتى طفح الكيل وحتى أصبحت جميع قوى الناس، منضمة إلى حيل الجحيم، عاجزة عن أن تضيف شيئاً إلى هذا المكيال. إن ألم الجسم نفسه يرفّه عني بدل أن يزيد في عذابي، ولئن كان هذا الألم ينتزع مني صرخات، فإنه قد يجنبني تنهدات، وإن تمزق جسدي قد يوقف تمزق قلبي.

أهناك ما لاأزال أخشاه منهم وكلّ شيء قد تمّ؟ إنهم أصبحوا عاجزين عن أن يزيدوا حالي سوءاً، فهل في استطاعتهم أن يثيروا في نفسي ذعراً بعد اليوم؟ إن القلق والخوف شران أنقذوني منهما إلى الأبد، وفي هذا بعض التعزية، والبلايا الحقيقية تأثيرها في ضئيل. وإني أتحمل بسهولة البلايا التي أصبت بها لا تلك التي أخشى وقوعها لأن مخيلتي المنفرة تنظمها وتبحثها وتزيدها، وارتقاب البلايا يحزّ في نفسي أكثر من وقوعها، والتهديد بنزولها أشد هولاً من حلولها، وحالما تنزل البلية ينتزع منها الواقع ما كان يكتنفها من خيال، ويردها إلى قيمتها الحقيقة. فإذا دهم البلاء وجدته أخف جداً مما كنت أتصوره، بل إني في شدة مصابي أشعر بشيء من العزاء. وفي هذه الحال النفسية، وإذ كنت أجدني متحرراً من كلّ خوف جديد ومن القلق الذي يصحب الأمل، فإن العادة وحدها كانت تكفيني لأن أتحمل، يوماً بعد يوم، حالاً لا يمكن أن تزداد سوءاً. وبقدر ما كانت تخمد نار العاطفة بمرور الزمن، كانت تنتفي لديهم وسائل إذكاء هذه النار. هذا هو الخير الذي نالني من مُضطهديّ إذ استنفدوا جميع الحراب التي وجهتها إليّ عداواتهم. فلقد خلعوا عني كلّ سلطان كان لهم علي، فصار بوسعي أن أهزأ بهم.

ها إن الهدوء قد استتب تماماً في نفسي من زهاء شهرين، وكنت

قد أصبحت لا أخشى محذوراً منذ زمن بعيد، ولكني كنت لاأزال آملاً، ولكن هذا الأمل الذي كان يراودني تارة وينغّص عيشي تارة أخرى كان مدعاة لإثارة أهواء مختلفة لم تنقطع عن إثارة بلابلي. وقد حدث حادث محزن مفاجئ أخمد أخيراً هذا البارق الضئيل من الأمل وأراني مصيري المحتوم على هذه الأرض، فاستسلمت إليه كلّ الاستسلام وعاد إليّ الهدوء.

ولم أكد أبدأ باستشفاف مدى المؤامرة الواسعة حتى فقدتُ إلى الأبد فكرة استرجاع عطف الجماهير وأنا على قيد الحياة، بل إن استرداد هذا العطف، الذي لا يكون متبادلاً، أصبح بعد أن كان ما قد كان، غير مجدٍ ولا نافع.

وقد كان يمكن للناس أن يعودوا إليّ ولكنهم ما كانوا ليجدوني. إن الاستخفاف الذي حملوني على الشعور به حيالهم يجعل معاشرتهم والائتلاف بهم شيئاً تفِهاً في مذاقي لا بل عبئاً ثقيلاً عليَّ، وها إني مئة مرة أسعد حالاً في وحدتي مني لو عشت معهم. لقد انتزعوا من قلبي جميع حلاوات المجتمع، وهذه الحلاوات لا يمكن أن تعود إليّ فتزكو في نفسي وأنا في السن التي بلغتها، لقد فات الأوان. فليصنعوا بي خيراً أو شراً بعد اليوم، إن ذلك سواء عليَّ، ومهما بذلوا من جهد فإن معاصريّ لن يكونوا، عندي، شيئاً مذكوراً.

ولكني كنت لاأزال أعتمد على المستقبل وآمل أن جيلاً أفضل، إذ يتولى النظر في ما صدر عليّ من أحكام من هذا الجيل وفي المسلك الذي سلكه مني، يكشف بسهولة خيوط مؤامرة أولئك الذين يهيمنون على هذا الجيل، ويرون بي أخيراً الرجل الذي أنا هو. إن هذا الأمل هو

الذي حداني على كتابة محاوراتي والذي ألهمني آلافاً من المحاولات الجنونية لإيصال هذه المحاورات إلى الأبناء والحفداء. وهذا الأمل، ولو بعيداً، كان يستبقي نفسي في ذلك الاضطراب الذي استولى عليها يوم كنت لاأزال أبحث بين رجال العصر عن قلب عادل، وآمالي التي كنت أحاول عبثاً أن أبعث بها إلى بعيد، كانت تجعلني، هي أيضاً، ألعوبة رجال اليوم. لقد ذكرت في محاوراتي على أيّ أسس أقيم هذا الرجاء. لقد كنت مخدوعاً ومن حسن الطالع أني شعرت بذلك قبل فوات الأوان لأجد، قبل دنوّ ساعتي، فترة من الطمأنينة التامة والراحة الكاملة. وهذه الفترة قد بدأت في الحقبة التي أنا في صددها، وأظن أن هذه الفترة لن تنقطع.

لا تمضي أيام قليلة جداً إلّا أيّدت اعتبارات جديدة مبلغ ما كنت مخطئاً في اعتمادي على رجوع الجمهور إليّ حتى في جيل آخر، ما دام الجمهور قد قاده، في ما يتعلق بي، أدلاء يتجددون بلا انقطاع في الهيئات التي أضمرت لي البغضاء. إن الأفراد يموتون، ولكن الهيئات المتضامنة لا تموت أبداً، وإن الأهواء أنفسها تتفاعل فيها إلى الأبد هي وبغضها الدفين المشتعل الأبدي، كالشيطان الذي يلهمها وهو على مثل نشاطها. وفي الوقت الذي يكون فيه أعدائي من الأفراد قد ماتوا سيكون الأطباء رهبان رهبنة القديس فيليبس النيرتي لايزالون أحياء[3].

(3) في ما يتعلق بالهيئات التضامنية التي يرى روسو أنه قد أهانها، انظر أول الحوار الثالث وعنوانه: (روسو يحاكم جان جاك). وهو يهاجم أيضاً الأطباء في كتابه إميل والرهبان قد أهينوا أيضاً في الحوار الثالث. ويقول ج. س. سبِنك (J. S. Spink) أن الأب دو مولاي الذي كان قساً على مونمورنسي وصديقاً لروسو، عين سنة 1773 رئيساً للرهبنة المذكورة، وهذا وحده يكفي لتسويغ موقف القطيعة الذي وقفه الأب المذكور، تجاه جان جاك مما يسوغ شكوك هذا.

وقد يهدّئ مرور الزمن الأطباء الذين أهنتهم حقيقة. ولكن هؤلاء الرهبان الذين كنت أحبهم وأوقّرهم وأثق بهم كلّ الثقة والذين لم أوجّه إليهم قط إهانة والذين هم رجال الكنيسة وأنصاف رهبان، لن ينطفئ أبداً أوّار حقدهم، إن تعسفهم هو الذي جعلوه إجراماً مني لن تغتفره لي أنانيتهم أبداً، والجماهير التي سيعنون بتغذية حقدها وإذكاء نار العداوة في قلوبها دون انقطاع، لن تسكن ثائرتها، شأنها في هذا كشأنهم.

لقد انتهى عندي كلّ شيء على الأرض، وليس على سطحها من يمكنه أن يوليني خيراً ولا شراً، ومع ذلك أراني هادئاً في قعر الهاوية، مخلوقاً شقياً مسكيناً، ولكني ثبت الجنان، معصوم عن التألم والتأثر مثل الله نفسه، جلّ جلاله.

ومنذ الآن كلّ ما هو خارج عني فهو غريب. لم يبقَ لي في هذا العالم قريب ولا نظراء، ولا إخوة. أنا على الأرض كما لو كنت على سطح كوكب سيّار غريب وقد سقطت عليه من ذلك الكوكب الذي كنت أسكنه، وإذا كنت أتعرف حولي ببعض الأشياء فما هي إلّا أمور محزنة لقلبي وممزقة له. ولا أستطيع أن ألقي نظرة على ما يلامسني ويحيط بي من دون أن أجد موضوع استخفاف يثير السخط في نفسي أو داعي ألم يحزنني. فلأُنحِّ إذن عن تفكيري جميع الأمور المؤلمة التي لو أوليتها اهتمامي لهاجت آلامي ولم تجدِني نفعاً. أما وقد قضي عليّ بالوحدة في ما بقي لي من الحياة، لأني لا أجد إلّا بي العزاء والرجاء والسكينة، فلا ينبغي لي ولا أريد بعد اليوم أن أهتم بغير نفسي. وهكذا، وأنا في هذه الحال النفسيّة، أواصل البحث الدقيق الصادق الذي كنت أسميه قديماً اعترافاتي.

سأكرّس بقية أيامي لدراسة نفسي ولإعداد الحساب الذي سأؤديه عن أعمالي. فلأستسلِمَنَّ إذن كلّ الاستسلام إلى حلاوة التحدث عن نفسي لأنها الحلاوة الوحيدة التي لا يستطيع الناس أن ينتزعوها مني. وإذا كنت أتوصّل، بفضل تفكيري في ما انطوت عليه باطنتي، إلى أن أنظم الأمور التي تختلج فيها وأن أصلح الشر الذي ربما كان لايزال فيها، فإن تأملاتي لن تكون بلا جدوى تماماً، ومع أني أصبحت لا أنفع شيئاً على هذه الأرض، فلن أكون قد أضعت عبثاً أيامي الخيرة. إن ساعات الفراغ التي أمضيتها في نزهاتي اليومية كانت تملؤها تأملات بهجة، آسف أني قد أضعت ذكراها، وسأسجل كتابة تلك الذكريات التي يمكن أن تعاودني حتى إذا ما استعدت قراءتها، استعدت التلذّذ بها، وهكذا أنسى مصائبي ومضطهديّ ومخازيّ إذا تذكرت الثمن الذي استحق قلبي أن يؤديه.

وهذه الأوراق لن تكون في الحقيقة إلّا صحيفة هواجسي مصغّرة وسيدور فيها عليّ الكلام كثيراً، لأن الوحيد المنفرد بنفسه الذي يفكّر، لا بدّ له أن يهتم بنفسه. ومع ذلك فإن جميع الفِكَر الغريبة، التي قد تخطر لي وأنا أتنزّه، ستجد لها محلاً في كتابي. وسأذكر في هذه الصحيفة جميع ما فكّرت فيه كما طرأ على خاطري من دون ارتباط وبالشكل الذي ترتبط فيه أفكار البارحة بأفكار الغداة، ولكن، على كلّ حال، ستتضح منها معلومات جديدة عن طبيعتي ومزاجي تُستشفّ من الأفكار والعواطف التي يلتقطها ذهني كلّ يوم من الحال الغريبة التي أنا فيها.

هذه الأوراق يمكن أن تعتبر إذن ملحقاً لاعترافاتي ولكني لن أسميها بهذا الاسم، لأنه لم يبقَ لي مما أقوله شيء يستحق هذه التسمية.

لقد تطهّر قلبي في بوتقة الضرّاء، ولا أكاد أجد فيه، إذا سبرت غوره، بقية من سيل محرّم، وما الذي لدي مما اعترف به، وقد نزعت منه جميع مودّات هذه الدنيا؟ لم يبقَ لدي ما أمدح به نفسي أو ما أوبخها عليه. لقد أمسيت صفراً بين الناس، وهذا كلّ ما يمكن أن أكونه إذ لم يبق لي علاقات حقيقية كما لم يبق لي مجتمع صحيح.

وإذا أصبحت لا أستطيع أن أعمل دون أن أنزل ضرراً بغيري أو بنفسي، فإن الامتناع عن العمل أصبح لدي الواجب الوحيد، وسأقوم بهذا الواجب ما بقي قائماً عندي. ولكن نفسي تظل نشطة إبان تعطل الجسم عن العمل، فهي لا تزال تثير عواطف وأفكاراً، ويبدو أن حياتها الداخلية والأدبية قد ازدادت نمواً بانقضاء كلّ منفعة أرضية وزمنية، إن جسدي هو لي سبب ارتباك بل حاجز يحجزني، وها إني أعتق نفسي منه مسبقاً قدر المستطاع.

إن حالاً غريبة كهذه تستحق بلا شك أن يبحث فيها وتوصف، وها إني أكرّس آخر أوقات فراغي للقيام بهذا البحث. وتوصلاً لحسن القيام به، يجب إجراء ذلك بترتيب وتنسيق: ولكني لست أهلاً لهذا العمل، لا بل إنه يحيد بي عن الغاية التي أنشدها وهي التحقق من التبدلات التي وقعت لنفسي وما نجم عن ذلك. سأجري على نفسي من بعض الأوجه، الاختبارات التي يجريها علماء الطبيعة على الهواء كي يعرفوا أحواله اليومية. سأقيس نفسي بمقياس الهواء حتى إذا أحسنت توجيه هذه الاختبارات وتكرارها أمكنني التوصل مثلهم إلى نتائج أكيدة، على أني لن أتوسع في مشروعي كما يتوسعون، وسأكتفي بتسجيل الاختبارات من دون أن أحاول جعلها طريقة بحث منسّقة

مقتضبة. أنا أقوم بالمشروع نفسه الذي قام به مونتين[4] ولكن لغرض يناقض غرضه كل المناقضة، لأنه لم يكن يكتب "محاولاته" إلّا لغيره، وأنا أكتب "هواجسي" لنفسي، وإذا حدث، كما أرجو، أن ظللت على حالي النفسية الراهنة، متى بلغت من الكبر عتياً قبيل رحيلي، فإن قراءة هذه الهواجس ستذكرني بالحلاوة التي أتذوقها وأنا أكتب ما أكتب، وإذ هي تعيد إليّ ولادة الزمن الماضي، فإنها بهذا تضاعف عمري. وعلى الرغم من الناس سأتذوق أيضاً مباهج المجتمع، وسأعيش هرماً مع نفسي في جيل آخر، كما أعيش مع صديق أقل مني سنّاً.

كنت أكتب اعترافاتي الأولى ومحاوراتي رغبة مني في أن أفلت بهما من مخالب مضطهدي الجوارح. كي أدفع بها، إذا أمكن، إلى أجيال أخرى.

إن هذا القلق لا يساورني اليوم في ما يتعلق بهذا المؤلف لأني أعرف أن لا فائدة منه، وأن رغبتي في أن يعرفني الناس معرفة أتم، وقد زالت من نفسي، لم تبقِ لي إلا لامبالاة عميقة بمصير مؤلفاتي الحقيقية وبشواهد براءتي التي ربما تكون قد أزيلت إلى الأبد. وسواء علي منذ الآن أأقلقتهم هذه الأوراق، أم استولوا عليها، أم أتلفوها، أم زوروها. إني لا أخفيها ولا أظهرها، وإذا انتزعوها مني في حياتي فلن ينتزعوا مني لذة كتابتها، ولا ذكرى ما تحتويه ولا التأملات المنفردة التي كانت تلك الأوراق ثمارها والتي لا يمكن إطفاء مصدر نورها إلّا بانطفاء سراج حياتي، ولو أني، منذ الساعة الأولى التي نزلت بي البلايا فيها،

(4) في ما يتعلق بالترابط بين محاولات مونتين وهواجس روسو فإن هذه تعد تابعة لـ الاعترافات.

عرفت ألّا أتذمّر من سوء مصيري وأن أتخذ موقف الاستسلام الذي أتخذه اليوم، فإن جميع مجهودات بني الإنسان وجميع أدواتهم المريعة ما كانت لتُحدث أثراً في نفسي، ولا كانت أقلقت راحتي هذه الأحابيل التي لا يمكن أن تقلقني منذ اليوم أياً كان النجاح الذي أحرزته، ألّا فلينعُمُنَّ بخزيي ما شاؤوا، فإنهم لن يمنعوني من التّمتع ببراءتي وتكملة أيامي بسلام بالرغم عنهم.

النزهة الثانية

أما وقد عقدت العزم على أن أصف مألوف حالة نفسي في أغرب موقف يمكن للإنسان أن يجد نفسه فيه، فلم أرَ طريقة أبسط وأضمن لإتمام هذا المشروع إلّا أن أضع سجلاً أميناً[1] أثبت فيه نزهاتي المنفردة والهواجس التي تملؤها عندما أترك لعقلي ملء الحرية، ولأفكاري متابعة سيرها من دون مقاومة ولا إزعاج. إن ساعات العزلة هذه وهي وحدها من ساعات اليوم، تلك التي أكون فيها أنا إياي دون عائق ولا إلهاء، والتي فيها أستطيع حقاً القول بأني ما أرادت الطبيعة أن أكون.

وما لبثت طويلاً حتى شعرت أني تأخرت في تنفيذ هذا المشروع، فإن مخيلتي التي أمست أقل اتّقاداً لا تضطرم كما كانت أمس عند تأمل الغرض الذي كان يذكي حماستها، وأصبحت أقل انتشاء بهذيان الهجس، وأصبحت استعادة الذكريات أكثر عندي من توليد الأفكار في ما كانت تنتجه تلك المخيلة، وشاع في جميع قواي خدر أهمد

(1) هذا السجل الأمين لم يكن إلّا أوراق لعب دوّن عليها أفكاره.

نشاطها، وأخذت روح الحياة تنطفئ فيّ بالتدريج، وجعلت نفسي لا تندفع خارج غلافي البالي إلّا بمشقّة، ولولا رجاء الوصول إلى الحال التي كنت أطمح إليها بحق، ما كنت حييت إلا بالذكريات. وهكذا، وتوصلاً إلى التأمل في نفسي قبل أن تغرب شمسي، يجب أن أعود بضع سنين إلى الوراء، إلى الزمن الذي فقدت فيه كل رجاء في هذه الدنيا والذي، إذ أمسيت لا أجد فيه غذاء لقلبي على الأرض، عوّدت نفسي شيئاً فشيئاً أن أغذي هذا القلب من مادته وأن أبحث له عن غذاء في قرارة نفسي.

وهذا المورد، الذي تأخرت طويلاً في الاهتداء إليه، أصبح جد خصيب، حتى لم يلبث أن أمدني بما يكفيني ليُعيضني عما سواه. واعتيادي أن أنطوي على دخيلتي وأرجع إلى نفسي مكنني، بعد لأي، من فقدان شعوري بويلاتي، فكدت لا أتذكرها. وهكذا عرفت، بما اختبرته، أن السعادة الحقيقية هي فينا، وأنه ليس في مقدور الناس أن يجعلوا بائساً كل البؤس ذلك الذي يريد السعادة. ومنذ أربع أو خمس سنوات اعتدت أن أتذوق تلك الحلاوات الداخلية التي تلقاها، في التأمل، النفوس المحبة الوديعة. إن ألوان الابتهاج والحماسة الروحية التي كنت أحسها قديماً في بعض الأوقات، وأنا أتنزه منفرداً، كانت لذائذ أنا مدين بها لمضطهديّ، فلولاهم لما كنت وجدت قط الكنوز التي تحملها نفسي. وهذه الخيرات الواسعة كيف يمكن أن أثبتها في سجل أمين؟ وكنت في محاولاتي لتذكر هذه الخواطر العذبة أعود إلى تذوقها بدل أن أصفها، وتلك حال تعيدها ذكرى هذه الخواطر ولا يلبث المرء أن ينقطع عن إدراكها بانقطاعه عن الإحساس بها إحساساً تاماً.

لقد شعرت كلّ الشعور بهذه النتيجة من خلال النزهات التي تلت مشروع كتابة بقية اعترافاتي، ولاسيما في النُّزهة التي أتكلم عنها والتي حدث من خلالها حادث مفاجئ قطع علي حبل أفكاري وحولها بعض الوقت إلى مجرى آخر[2].

ففي يوم الخميس الرابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، سرت بعد الغداء في الشوارع الكبيرة حتى شارع "شيمان فير" ومنه بلغت مرتفعات "مينيلمونتان"، ومن هناك أخذت أسير في المعابر بين الكروم والمروج متجهاً إلى "شارون" ذات المناظر الضاحكة التي تفصل بين هاتين القريتين، ثم سلكت منعرجاً كي أعود عن طريق تلك المروج من سبيل آخر. وكنت ألهو باجتياز تلك المروج بلذة واهتمام، كنت دائماً أشعر بهما عند مروري بالأماكن الجذابة، كما كنت أقف أحياناً لأحدّق إلى نبتات نمت وسط الخضراء. فلفتت نظري نبتتان كنت أراهما نادراً في ضواحي باريس تنبتان بكثرة في هذا الأقليم، ثم اهتديت إلى نبتة أخرى أكثر ندرة ولاسيما في بلد مرتفع، ورغم الحادث الذي وقع لي في هذا اليوم وجدت هذه النبتات الثلاث ضمن كتاب كان معي وكنت أضعه في حقيبة الأعشاب التي أجمعها.

وأخيراً، وبعد أن نظرت بالتفصيل إلى نباتات أخرى كانت أزهارها لاتزال عالقة بها وكان مظهرها وتعدادها يدخلان السرور إلى نفسي، تركت هذه الأعشاب والبحث في فصائلها لأستسلم إلى شعور أقل لذة ولكنه أكثر تأثيراً في النفس ذلك هو الشعور الناتج من اجتماع

(2) إن حادثة مينيلمونتان (Ménilmontant) التي سيحدثنا عنها روسو لها المقام الأول في تأليفه كتاب الهواجس.

كلّ هذا. وكان قِطاف الكروم قد انتهى منذ أيام، وكان المتنزهون القادمون من المدينة قد انصرفوا. كما كان الفلاحون هم أيضاً يهجرون الحقول حتى بدء أشغال الشتاء. وكان الريف ما يزال أخضر ضاحكاً وقد تناثرت بعض أوراقه وكاد يُقفر من الناس، فأوحى إليّ بمزيج من الانطباعات العذبة المحزنة بلغت حداً لم يسعني معه إلّا أن أطبّقها على نفسي؛ فوجدتُني في مساء حياة بريئة أعوزني فيها التوفيق ووجدت نفسي لاتزال ملأى بالعواطف الفياضة، وذهني لايزال، رغم هذا، مزداناً ببضع أزهار قد أذبلها الحزن وجففتها الهموم. وإذ رأيتُني وحيداً منبوذاً، أحسست بإقبال أول برد الثلوج وأصبحتْ مخيلتي الناضبة لا تملأ وحدتي بمخلوقات كُوِّنت طبقاً لرغبتي، وكنت أقول في نفسي، وأنا أُصعِّد الحسرات: يا نفسُ ما الذي صنعتِه في هذه الدنيا؟ لقد خلقتُ لكي أحيا، وها أنا أموت ولم أحيَ. وحسبي أن هذا ليس من ذنبي وأني سأحمل إلى من فطر وجودي، إن لم يكن في استطاعتي أن أقدم له هدية من أعمال صالحة حالوا بيني وبينها، سأحمل له جزية من نيات خائبة محرومة الحقوق، وعواطف صافية تركوها بلا فعل ولا تأثير، ومن صبر فوق كلّ صبر على احتقار الناس. وكان الحنان يأخذني كلّما غصت في هذه التأملات، فأستعيد نزواتِ نفسي منذ أيام شبابي ورجولتي، ومنذ اليوم الذي نبذوني فيه من المجتمع وطوال الاعتكاف الطويل الذي قضي عليّ أن أكمل فيه أيامي. وكنت أستعيد أيضاً، بلذّة، جميع مودات قلبي والارتباطات العمياء المليئة بالحنان، كما كنت أذكر الأفكار التي يقلّ في ذكرها الشعور بالحزن عن الإحساس بالعزاء، تلك الأفكار التي غذت ذهني منذ بضع سنوات، وكنت أعد العدة للتذكير بها كي أصفها بلذة تعادل اللذة التي أحسستها إذ استسلمت

إليها. وهكذا انقضى عصر النهار في الاستسلام إلى هذه التأملات الهادئة، وسلكت سبيل العودة وأنا مسرور من هذا النهار. وإذا بي، وأنا في سبات عميق من أحلامي، قد أيقظتني منها هذه الحادثة التي أرويها في ما يلي:

كنت في الساعة السادسة عند منحدر مينيلمونتان وأمام "جالان جاردينيه" تقريباً إذ سارع أشخاص كانوا يسيرون أمامي في التنحي عن الطريق، وإذا بي أرى كلباً دانماركياً كبيراً يندفع نحوي بأقصى سرعة وهو يجري أمام عربة ولم يتمكن من الوقوف أو من اجتنابي عندما لمحني. فرأيت أن الوسيلة الوحيدة، لاجتنابه واتقاء السقوط على الأرض، أن أقفز في الهواء بحيث يمر الكلب من تحتي، وكانت هذه الفكرة، التي مرت بخاطري كسرعة وميض البرق، والتي لم أتمكن من تنفيذها، هي آخر ما فكرت فيه قبل وقوع المحذور، فإني لم أحس الضربة ولا السقطة على الأرض ولا شيئاً مما تلا ذلك حتى أفقت من إغمائي.

كان الليل قد أوشك أن يمد رواقه عندما عاد إليّ وعيي. فوجدتُني بين أيدي ثلاثة أو أربعة فتيان حدثوني بما وقع لي، فإن الكلب، إذ لم يتمكن من إيقاف اندفاعه، ارتمى على ساقي وصدمني بجثته وبشدة سرعته، فأوقع رأسي إلى الأمام. ولما كان فكي الأعلى قد حمل كلّ ثقل جسمي فقد ارتطم بالبلاط الشديد الخشونة، وزاد في عنف الصدمة أنها وقعت على منحدر الطريق مما جعل رأسي أسفل من رجليّ، والعربة التي كان الكلب ملكاً لأصحابها وكانت تسير وراءه، كادت تمر فوقي لولا أن الحوذيّ استطاع إيقاف الجوادين في

الحال. هذا ما قصّه عليّ أولئك الذين أنقذوني والذين كانوا لايزالون يسندونني عندما عاد إليّ وعيي. والحال التي كنت عليها في هذه الآونة كانت من شدة الغرابة فريدة بحيث يجدر بي وصفها.

أخذ الليل يُسدل ظلاله، فلمحت في السماء بضعة كواكب وقليلاً من الخضرة. فكان هذا الإحساس الأول ساعة لذيذة لأني ما كنت أشعر بعد بوجودي إلا من هذه النظرة. كنت أولد في هذه اللحظة من الحياة ويُخيّل إليّ أني كنت أملأ بوجودي اللطيف جميع الأشياء التي ألمحها. وإذ كنت كلّي منصرفاً إلى الساعة الحاضرة فما كنت لأذكر شيئاً، ولا كانت لديّ أي فكرة عن شخصي ولا عما حل بي، ولا كنت أدرك من أنا ولا أين أنا، ما كنت أحس بوجع ولا أشعر بخوف أو قلق. كنت أرى دمي يسيل كما لو رأيت جدولاً يسيل بمائه ومن دون أن أتصوّر بتاتاً أن هذا الدم هو دمي، كنت أشعر في جسدي كلّه بهدوء مدهش كلما تذكرته لا أجد له مثيلاً في نشاط جميع اللذات المعروفة(3).

سألوني أين أقيم، فاستحال علي أن أهديهم إلى محل إقامتي، وسألتهم أين أنا، فقالوا لي: أنت في محلّة الـ "هوت بورن". فكان ذلك كما لو قالوا لي: أنت فوق جبل الأطلس ودعا الأمر إلى أن سألوني تباعاً عن البلد والمدينة والحي الذي أنزل فيه، وهذا أيضاً لم يكن كافياً للتعرف بي، وكانت المسافة التي قطعتها مشياً من ثم إلى الشارع هي التي ذكّرتني باسمي وبمحل إقامتي، ودعت الشفقة رجلاً ما إلى مرافقتي بعض الوقت، ولما عرف بأني أقيم بعيداً نصح لي بأن أكتري

(3) هذا التحليل النفسي البليغ تجدر مقارنته بوصف حادثة مماثلة وقعت لمونتين (Montaigne).

عربة من محلّة "التانيل" فتوصلني إلى منزلي، وكنت أقوى على السير وأجدّ فيه خفيفاً من دون أن أشعر بألم أو بجرح مع أنني كنت أبصق دماً من وقت إلى آخر. وكانت تأخذني قشعريرة من البرد تصطك لها أسناني المكسرة بشكل مزعج. ولما بلغت "التانيل" بدا من الأفضل لي، وبإمكاني السير على الأقدام، أن أواصل طريقي مشياً، كي لا أتعرض للموت برداً في عربة. وهكذا قطعت نصف الفرسخ الذي يفصل بين "التانيل" وشارع "لابلاتريار" وأنا أمشي بلا مشقة متجنباً الازدحام والعربات، مختاراً ومواصلاً طريقي كما لو أني كنت سليماً معافى. ووصلت وفتحت قفل باب الشارع وتسلقت السُّلم في الظلام ودخلت أخيراً إلى بيتي من دون أن يحدث لي حادث سوى سقوطي وما تبعه مما لم أكن قد وعيته بعد.

وأدركت من صراخ زوجتي، عندما وقع نظرها عليّ، أن ما حل بي كان أشد مما ظننت. وأمضيت الليل أيضاً من دون أن أعي وأحس بما قد دهاني. وهاك ما أحسسته ووجدته في الغداة: كانت شفتي العليا مشقوقة من الداخل حتى الأنف، ومن الخارج وقاها الجلد فحال دون انفصالها عن جسمي، وكانت أربع من أسناني قد غاصت في لحم فكي الأعلى، أما جزء الوجه، وهو الذي يغطيها، فكان وارماً وممزقاً دامياً، وإبهام يدي اليمنى مرضوضاً ومنتفخاً، وإبهام اليد اليسرى مجروحاً جرحاً بليغاً، والذراع اليسرى مرضوضة، وكذلك الركبة اليسرى كانت متورّمة، وبها كدمة شديدة موجعة كانت تمنعني من طيّها. ومع كل هذا لم يكن هناك أي كسر حتى في الأسنان، إنه لتوفيق يقرب من الأعجوبة في سقطه كهذه السقطة.

هذه هي حقيقة قصة الحادث الذي وقع. ولم تمض بضعة أيام حتى انتشر هذا الخبر في باريس في رواية ملفّقة مشوّهة من العسير أن تفهم. وقد كان يجدر بي أن أنتظر حدوث مثل هذا المسخ ولكن رافقته ظروف غريبة، وإشاعات غامضة، وأحاطت به ضروب من التعمية والكتمان، وكان الناس يحدثوني عن هذه الحادثة بتحفظ تلفُّه السخرية حتى تسرب القلق إلى نفسي من هذه الأسرار وتلك الإشاعات. لقد أبغضت الظلمات دائماً، فإنها تشعرني طبيعة برعب، وهذه الظلمات التي أحاطوني بها منذ سنوات متعددة لم تنقص. ومن هذه الأمور الغريبة التي وقعت في هذه الآونة لن أشير إلّا إلى واحدة ولكنها كافية للحكم على الأمور الأخرى.

أوفد إليّ السيد لونوار مدير الشرطة العام، ولم تكن لي به علاقة قط، أمين سره ليستطلع أخباري ويعرض علي بإلحاح خدماته التي لم تبدُ لي ذات فائدة لإنعاشي في تلك الظروف، وبالغ أمين السر في دعوتي إلى الانتفاع بتلك الخدمات حتى إنه قال لي: "إذا لم تكن واثقاً بي فيمكنك أن تكتب إلى السيد لونوار". هذا الإلحاح الشديد الذي رافقه مظهر السرية حملني على الاعتقاد أن وراء هذا سراً من الأسرار حاولت عبثاً أن أكشفه، كان في هذا الكفاية لتفكيري، ولاسيما أني كنت في حال هياج بلبلت فيها رأسي الحادثة التي وقعت لي والحمى التي انتابتني. وكنت أستسلم إلى افتراضات وتكهنات مقلقة حزينة، كما كنت أعلل ما كان يدور حولي بتعليلات هي وليدة الحمى لإثبات الجأش الملازم لرجل بات لا يهتم بأي أمر كان.

ووقعت حادثة أخرى قضَّت مضجعي وعكرت صفو هدوئي، ذلك

أن السيدة دورموا كانت تتقرب إليّ منذ سنوات، من دون أن أتبين لذلك سبباً. كانت هناك هدايا صغيرة مصطنعة وزيارات متتابعة، دون ما غرض منها ولا لذة لي بها، تدلني على أن في الأمر غاية خفية. كانت هي قد ذكرت لي أنها تريد وضع رواية لترفعها إلى الملكة[4] وقد أدليت لها برأيي في النساء المؤلفات، فأفهمتني أن الغرض الذي تتوخاه من مشروعها هو استعادة ثروتها وأن مشروعاً كهذا يستدعي إيجاد نصير، ولم يكن لدي ما أرد به عليها. وقالت لي بعد ذلك إنها إذا لم تتمكن من مقابلة الملكة فإنها صممت على وضع كتابها بين يدي جمهور القراء، فلم يبقَ من داعٍ لأن أزوّدها بنصائح لم تطلبها مني ولا كانت عملت بها. وأفضت إليّ بعزمها عرض الكتاب علي قبل نشره فرجوت منها ألّا تفعل؛ فأذعنت لإرادتي.

---

(4) إن المنشورات المعروفة لرواية السيدة دورموا الموسومة باسم: **مصائب الفتاة إميلي، في سبيل إرشاد النفوس الفاضلة الحساسة** تعود إلى سنة 1777، ولكن روسو يقول في ما يلي إنه تسلم الكتاب مطبوعاً ومجلداً إبّان نقاهته، أي في شهري تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر سنة 1776. وكي يمكن تقديمه إلى الملكة، كان يجب أن يطبع قبل شهر كانون الأول/ ديسمبر أي في المدة التي جرت العادة فيها أن ترفع التقديمات للملكة كما يتضح ذلك من الاطلاع على مجلة الـ **ميركور دو فرانس**، ومع ذلك، فهي تحمل تاريخ السنة التالية التي يمكن فيها أن توضع هذه الرواية بين أيدي جمهور القراء. ومن ناحية أخرى فإن المؤلفة معجبة صادقة بروسو ومتحمسة له، وبطلتها إميلي تشبه شبه الأخت لأختها بطلات مارمونتال وباكولار دارنو، إن ضروب الإغراق في المدح، وهي التي يتذمر منها روسو في القسم الثاني من الكتاب، لا تتفق البتة مع بقية المؤلف. وإن التعبير غير اللبق في تواضعه الذي يستعمله عندما يتكلم عليها يصبح من إنشاء القصائد الحماسية الغنائية ومن الانزلاق في المبالغة عندما يريد المؤلف أن يكيل الثناء إلى غيره. ولكن اِمرَأً عاطفياً يصعُب عليه أن يتحمل صورة هزلية كهذه لأسلوبه الخاص في الكتابة.

وذات يوم، في أثناء نقاهتي، وصلني منها هذا الكتاب مطبوعاً ومجلداً.

ورأيت في المقدمة عبارات ثناء فياضة موجهة إليّ، ملبسة ثوباً قاتماً من التصنّع والتكلّف، أحدثا في نفسي استياء وتأففاً، فإن التملق البادي في ذلك المدح، لم يكن قط مؤتلفاً مع العطف والإعجاب: إن قلبي لا يمكن أن يخدع بمثل هذا.

وبعد بضعة أيام جاءت السيدة دورموا تزورني مع ابنتها وأنبأتني أن كتابها يحدث ضجيجاً صاخباً بسبب تعليق ورد فيه، ما كدت أتنبه إليه عند قراءتي هذه الرواية قراءة عابرة، وبعد انصراف السيدة دورموا أعدت قراءة ذلك التعليق ونظرت ملياً في شكل التعبير والتركيب فتبين لي داعي زياراتها وملاطفاتها ومدائحها المجسمة في مقدمة كتابها. وخلصت من ذلك إلى الحكم بأن جميع هذا لم يكن يرمي إلّا إلى تحضير أذهان القراء كي ينسبوا إلّي ذلك التعليق وبالنتيجة اللوم الذي يمكن أن يوجه لواضعه في الظروف التي نُشر فيها[5].

---

(5) التعليق الذي يشكو منه روسو وارد في آخر جزء من الرواية في نسخة للمكتبة الأهلية مجلدة ومتوجة بشعار ماري أنطوانيت. وربما كانت هذه النسخة هي المخصصة لها. ولم يكن هذا التعليق مكتوباً على ورقة منفصلة، كما يذهب إلى ذلك ج. س. سبنك، ولكنه مثبت بقصد في آخر الرواية بعد نقط تشير إلى التوقف عن الكلام وخلال فقرة تصف فيه المؤلفة دوريمون ذلك العاشق الفاضل التاعس الذي يحضر نشاطه في تخفيف بؤس القرويين. ويذكر التعليق أن هؤلاء القرويين يرزحون في أكثر الأوقات تحت وطأة الضرائب، "على حين أن الملك لا يدري شيئاً من هذا، لما يحيط به من متملقين". على أنه قد أضيف بعد هذا ما يلي: "إن الملوك هم الذين يُولَدون فينا عادة الفضائل، والمرء يصوغ نفسه في القالب الذي يصاغ به من ألقيت إليه مقاليد الحكم. وفي ظلال ملك =

ولم يكن لدي من وسيلة لإسكات هذه الضجة وما يمكن أن تحدثه من انطباع، وكلّ ما كان يمكنني عمله هو ألّا أذكّي النار بالنفخ فيها وأن أتحمل تتابع زيارات المؤلفة لي برفقة ابنتها، تلك الزيارات التي كانت ترمي إلى التظاهر، والتي كانت عديمة الجدوى، ولهذا بعثت إلى السيدة دورموا بالرسالة الآتية:

"أما إذ روسو لا يستقبل في منزله مؤلفاً، كائناً من كان، فهو يشكر للسيدة دورموا مظاهر لطفها ويرجو منها ألا تشرفه بزياراتها بعد اليوم".

فردت علي بجواب مهذب في شكله، ولكنه في ثناياه شبيه بكل ما كان يكتب إليّ في مثل هذه الحال. لقد كنت أغمدت خنجري في قلب حساس، بمنتهى الوحشية، وكان لدي ما يدعو إلى الاعتقاد من صيغة كتابها أنها، إذ كانت تكنّ لي عواطف حارة وصادقة كلّ الصدق، فإنها لن تتحمل هذه القطيعة. وهكذا، فإن الاستقامة والصراحة في كل شيء هما في العالم جريمتان شنيعتان ووحشيتان، وأنا في نظر معاصريّ شرير ووحش مفترس ولو لم يكن لي من ذنب إلّا أني لست مثلهم مماذقاً ولا مخاتلاً.

= ذي فضيلة تولد الأخلاق وتحيا، وأفاضل الناس يتزاحمون حول العرش". وفي أسفل الصفحة حاشية تلفت النظر إلى أن الثناء موجه إلى الملك لويس السادس عشر. ولكن الوزير تورجو كان قد سقط منذ بضعة أشهر قبل هذا، وكان لماري أنطوانيت يد في سقوطه. لذلك لم يكن في وسع روسو أن يتجاهل الخطر الذي لفتته إليه السيدة دورموا في أثناء زيارتها الأخيرة له، ولذلك كتب إليها تلك الرسالة التي أملاها عليه القلق. والتعليق الذي نحن في صدده اختفى من جميع الطبعات الأخرى.

وكنت قد بدأت أخرج وأتنزّه في "التويلري" فإذا بمن ألتقي بهم يدهشون لجهلي أخباراً جديدة تدور حولي. لقد أنبئت أن هناك إشاعة تدور على ألسنة الناس بأني لاقيت حتفي إثر الحادث الذي وقع لي، وأن الملك والملكة أنفسهما قد حدّثا بحديث موتي بعد أن اتصلت بي هذه الشائعة بخمسة عشر يوماً، وأنهما أكدا صحة موتي. وكتب إليّ أن جريدة "فينيون" قد نشرت نبأ هذه الوفاة السعيد وأنها لم تتورع من استباق كيل الشتائم لي والافتراءات عليّ، مما يعدّونه لذاكري بعد موتي رثاء وتأبيناً.

وهذا النبأ صحبته واقعة أخرى أشد غرابة لم أدرِ بها إلّا اتفاقاً ولم أتمكن من معرفة تفصيلاتها. ذلك أنهم فتحوا اكتتاباً لطبع المخطوطات التي يجدونها عندي، فأدركت أنهم بهذا قد أعدوا مجموعة مؤلفات مزوّرة لينسبوها إليّ بعد مماتي، لأنه من الحمق أن يُظَنّ أنهم سيطبعون بأمانة مؤلفاً مما يجدونه عندي. أجل تلك كانت حماقة لا يغتر بها رجل عاقل مثلي قد حنكته التجارب ووَقَتْه من أن ينخدع بمثل هذه الألعوبة.

هذه الملاحظات التي أخذت علماً بها، مرة بعد مرة، وملاحظات أخرى لم تكن أقل غرابة أرعشت مخيلتي التي كنت أظن أنها مُنيت بالضعف، وهذه الظلمات السود التي كانوا ينشرونها بلا انقطاع حولي أيقظت وأذكت الرعب الطبيعي الذي كانت تلك الظلمات تبعثه في نفسي. فكنت أجهد نفسي بأن أبتدع تعليلات لكل هذا، وأن أحاول جلاء الأسرار التي ألبسوها ثوب الغموض حولي. فكانت النتيجة الثابتة لهذه الألغاز الكثيرة مؤكدة للنتائج السابقة التي استخرجتها وهي أن المصير الذي أعد لشخصي ولسمعتي، قد حددته بالتواطؤ في ما بينها جمهرة الجيل الحاضر فأصبح جد عسير عليّ أن أعهد إلى

أجيال أخرى بوديعة ما، من دون أن أسلمها، في هذا الجيل، إلى أيد لها مصلحة بتبديدها.

ولكني في هذه المرة ذهبت بعيداً في استنتاجي، فإن تجمع الكثير من الظروف عرضاً واتفاقاً، ورفعة شأن أقسى أعدائي الذين اجتمعوا هم وأولئك الذين يحكمون الدولة أو يوجّهون الرأي العام، واتفاق أولئك الذين أحرزوا الجاه والنفوذ والذين انتُقوا فرداً فرداً بين الذين يُضمِرون لي العداوة، وكل ذلك ليعاونوا في نسج خيوط المؤامرات الجماعية، قلتُ إن هذا الاتفاق العجيب لا يمكن أن يكون لغرابته طارئاً وليد المصادفة، فلو أن رجلاً واحداً رفض أن يكون شريكاً فيها، أو أن حادثة واحدة وقفت في طريقها، أو أن ظرفاً غير منتظر منعها من التنفيذ، لو كان هذا أو ذاك لكان كافياً لأن تخفق. ولكن جميع الإرادات وأحكام القدر والحظ وجميع الثورات قد وطدت عمل الرجال، واتفاق كهذا بارز للعيان نتيجة أعجوبة لا يمكن أن يحملني على الشك بأن نجاح هذه المؤامرة نجاحاً تاماً مخطوط على ألواح القدر. وهناك مجموعة من الاعتبارات الخاصة، في الماضي والحاضر، أثبتت لي هذا الرأي وحملتني على التمسك به، ومن ثَمَّ فلا يسعني بعد اليوم إلا أن أعتقد أن هذا العمل نفسه الذي ما كنت أنظر إليه إلّا على أنه ثمرة من ثمار رداءة الناس، هو من أسرار السماء التي لا يدركها عقل الإنسان.

وهذه الفكرة، بدل أن تبدو لي قاسية مؤلمة، تعزيني وتبعث الطمأنينة في نفسي وتساعدني على الاستسلام والرضا، ولو أذهب بعيداً في الاستسلام فأقول مع القديس أوغسطينوس: إني أرضى بأن أكون هالكاً إذا كانت تلك مشيئة الله.

إن استسلامي ينبع من مصدر أقل تجرداً ولكنه ليس بأقل نقاوة، بل هو، في اعتقادي، أجدر بالكائن الكامل الذي أعبده. إن الله عادل وهو يريد أن أتعذب وهو يعلم أني بريء هذا هو سبب ثقتي، ثم إن قلبي وعقلي يهيبان بي أن هذه الثقة لن تخدعني. إذن لِنترُكَنَّ الناس والقدر يفعلون ما يشاؤون، ولنتعلمنَّ أن نتعذب من دون تذمُّر، فكل شيء لا بدّ أن يعود إلى النظام، ولا بد أن يجيء دوري عاجلاً أم آجلاً.

النزهة الثالثة

"لقد اصبحت شيخاً إذ لا ازال اتعلم"

كان سولون يردّد كثيراً هذا البيت من الشعر في شيخوخته، وإن له معنى ينطبق عليّ أيضاً في شيخوختي. ولكن ما أمر هذا العلم الذي أكسبَتْنيه الخبرة طوال عشرين سنة: فالجهل أفضل برغم ما كسبته. إن الضراء هي، ولا شك، أعظم معلم، ولكن أجر دروسها غال، وكثيراً ما يكون النفع الذي يُجنى لا يوازي الثمن الذي أُدِّي، ومن ناحية أخرى، قبل أن يحرز المرء جميع هذه المكاسب من دروس جاءت متأخرة، يكون زمن الانتفاع بها قد ولّى. إن الشباب هو زمن دراسة الحكمة، والشيخوخة زمن ممارستها، ولست أنكر أن الخبرة تُعلّم دائماً ولكنها لا تفيد إلا بقدر المدة الباقية من الحياة. وهل لدى الإنسان متسع من الوقت لأن يتعلم، ساعة لا بدّ له من أن يموت، كيف كان يجب عليه أن يحيا؟

وأسفاه ما فائدتي من أنوار المعرفة التي اكتسبتها بشق النفس بعد فوات الأوان، وأي تأثير لها في مصيري وفي أهواء الرجال الذين هيَّؤوا لي هذا المصير. أو لم تزدني معرفتي بالناس إلّا مزيداً من الإحساس بالبؤس الذي رموني في أحضانه من دون أن تتيح لي هذه

المعرفة التي كشفت لي عن جميع أحابيلهم، أن أجتنب أحبولة واحدة منها. لمَ لمْ أظل أبداً في أحضان الثقة العمياء، ولكنها أيضاً ثقة عذبة، تلك التي تركتني مدة سنوات كثيرة طريدة بل ألعوبة أصدقائي ذوي الصخب وقد عشت بينهم ملتفاً بشباك غدرهم من دون أن يتسرب إليّ شك في ذلك. صحيح أنني كنت ضحيتهم ومخدوعاً بهم ولكني كنت أحسبهم يحبونني، وكان قلبي يتلذذ بالصداقة التي أوحوا إليّ بها فبادلتهم بمثلها. لقد اضمحلت هذه الأوهام الحلوة. فالعقل والحقيقة المرة قد أرياني، إذ أشعراني بشقائي، أن هذا الشقاء لا دواء له، وأنه لم يبقَ لي إلّا الاستسلام. ومن ثم فإن جميع ضروب الخبرة التي اكتسبتها في حياتي، هي لي، وفي الحال التي أنا فيها، غير نافعة في الحاضر، وغير جالبة لكسب في المستقبل.

نخوض معترك الحياة منذ ولادتنا ونخرج منه عند الموت. وأي فائدة يجنيها الفارس من تعلم قيادة مركبته أحسن من قبل إذا كان قد بلغ بها آخر الميدان. لا يُطلب إليه في هذه الحال إلّا أن يفكر في كيفية الخروج منه. ودراسة الشيخ، إذا لايزال يقوى عليها، هي أن يتعلم كيف يموت، وهذا أقل ما يعمله إنسان سنه مثل سني. إنه يفكر في كل شيء إلا في هذا، والشيوخ يتمسكون جميعهم بالحياة أكثر مما يتمسك بها الفتيان، ويخرجون منها وهم أشد من الشبان تأسفاً واستياء. ذلك لأنهم عملوا لدنياهم فقط، فإذا دنت ساعتهم أدركوا أن مجهوداتهم الشاقة قد ذهبت أدراج الرياح. إنهم يتركون كلّ شيء عندما يرحلون، جميع ما اعتنوا به وما ملكوه، وجميع ما سهروا دائبين في جمعه، لم يفكروا أن يكتسبوا في حياتهم الطويلة ما يستطيعون أن يحملوه معهم ساعة موتهم.

لقد قلت لنفسي كل هذا، قبلما فاتني أوان قوله، وإذا كنت لم أجنِ من تفكيري فائدة أجزل، فليس الذنب في ذلك علي في الإحجام عن التفكير ولا في هضم ما فكرت فيه. لقد أُلقيت منذ طفولتي في تيار هذا العالم فعلمتني التجربة مبكراً أني لم أخلق لأعيش فيه، وأني لن أصل أبداً إلى الحال التي كان قلبي يُشعرني بالحاجة إليها. وإذ إني تركت البحث بين الناس عن السعادة التي كنت أشعر باستحالة الاهتداء إليها، فإن خيالي المتّقد أخذ يحلق، فوق فضاء حياتي التي لم تكد تبدأ، وكأنه يثبت فوق أرض غريبة عني، كي يستريح في مستقر هادئ يمكنني أن أحط عصا الترحال فيه.

هذا الشعور الذي غذته التربية منذ طفولتي والذي أنمته طول حياتي سلسلة مديدة من ضروب البؤس والحرمان؛ حملني أن أبحث في جميع الأزمان لأعرف طبيعة الذي أنا هو، والغاية التي خلق لها، كل ذلك بعناية واهتمام لم يبذل أحد من الناس مثلهما، لقد رأيت كثيراً غيري يعنى بالفلسفة عناية أستاذ أعلم مني، ولكن فلسفتهم كانت، على نوع ما، غريبة عنهم، لأنهم، إذ كانوا يريدون أن يكونوا أعلم من غيرهم، أخذوا يدرسون العالم في سبيل معرفة تكوينه، كما لو أنهم كانوا يدرسون آلة من الآلات وقع نظرهم عليها، وذلك إرضاء لفضولهم. وكانوا يدرسون الطبيعة البشرية كي يمكنهم التحدث عنها تحدثاً علمياً، لا ليعرفوا أنفسهم، كانوا يعملون لتثقيف غيرهم، لا لينيروا بواطن نفوسهم. وكثير منهم لم يكن يرمي إلّا إلى تأليف كتاب، أياً كان نوعه، شرط أن يقبل عليه الناس، فإذا ما تم هذا المؤلَّف ونُشِر فإن محتواه لن يثير اهتمامهم بتاتاً إلا إذا شاؤوا أن يحملوا الناس على الأخذ به، أو أن يدافعوا عنه إذا طعن فيه، فلا همَّ لهم، وسواء عليهم أكان

موضوع هذا الكتاب حقيقة أم زوراً وبهتاناً، على شرط ألّا يدحض ما جاء فيه، وأما أنا فكنت إذا أردت أن أتعلم؛ فلكي أعرف نفسي لا لأعلم غيري، لأني قد اعتقدت دائماً أنه يجب، قبل أن أعلم الآخرين، أن أبدأ بنفسي، لتكون لها الكفاية من العلم، وما من دراسة قمت بها طول حياتي بين الناس، إلّا كان في استطاعتي أن أقوم أيضاً بها وحدي منقطعاً عن الناس في جزيرة قفراء أعتزل فيها إلى آخر أيامي. إن ما يجب عمله يتعلق كثيراً بما يجب أن نراه ونعتقده، فإن آراءنا هي منظمة أعمالنا وقاعدتها، إلّا في ما كان متعلقاً بأوليات حاجاتنا. وفي نطاق هذا المبدأ، الذي كان مبدئي دائماً، بحثت طويلاً وكثيراً، في سبيل التوصل إلى توجيه مجرى حياتي لمعرفة حقيقة غايتها، ولم ألبث أن تملكني العزاء لضآلة كفايتي لأن أسلك في هذا العالم سلوكاً لبقاً، إذ شعرت أنه يجب ألّا يبحث فيه عن هذه الغاية.

لقد أبصرت النور في أسرة تسودها الأخلاق والتقوى، ثم تولى تربيتي بعد ذلك برفق راعي كنيسة مليئاً بالحكمة والإيمان، ولذلك تلقيت، منذ نعومة أظفاري، مبادئ وحكماً، قد يسميها غيري أموراً متفقاً عليها بين الناس، لم أتحول قط عنها تحولاً تاماً، وكنت لاأزال صبياً متروكاً أمره لنفسه، مدللاً، مأخوذاً بالغرور، مُمَنّىً بالرجاء، ممسوساً بالفاقة، عندما اعتنقت الكثلكة ولكني دائماً مسيحياً ولم (أعتِم) أن تغلبت على العادة، فتعلق قلبي بالمذهب الجديد تعلقاً صادقاً، وزادني تمسكاً بهذه العقيدة تعاليم السيدة دو فارينس ومُثُلها. والوحدة بين الحقول، حيث أمضيت ربيع الشباب، ودراسة الكتب الصالحة التي انصرفت إليها بكُلِّيتي عززت، في القرب منها، مواهبي الطبيعية وتمسكي بعواطف الودّ، وصيرتني متعبداً على منهج فينيلون

تقريباً. وتعمّقي في التفكير وسط عزلتي ودراسة الطبيعة والتأمل في العالم ترغم الوَحِدَ المنفرد على الارتفاع بنفسه نحو صانع الأشياء، وعلى البحث، في قلق مُستّحَب، عن غاية كلّ شيء يراه وعن سبب كل ما يُحسّه. ولما ألقى بي القدر ثانية في خضمّ هذا العالم، لم أجد فيه، مما كنت أجده من قبل، شيئاً يمكنه أن يفتن قلبي، وكان الأسف على انقضاء تلك الفترات الحلوة يتبعني في كل مكان، ويلقي اللامبالاة والتقزّز على كلّ ما يكون في متناولي مما من شأنه إنالتي الثروة والجاه. وإذ كنت متردداً في رغباتي القلقة، كنت أرجو قليلاً، فنلت أقل مما أرجوه، وشعرت من خلال ومضات تتكشف عن رخاء، أنني عندما أعثر على جميع ما كنت أظنّ أني أنشده؛ لم أكن لأجد في ما لقيته هذه السعادة التي كان قلبي توّاقاً إليها من دون أن يكتشف مُسبِّبها. وهكذا كان كلّ شيء يشارك في حملي على التجرد من مودّات هذا العالم، حتى قبل النوازل التي قضت أن تجعلني غريباً عنه تماماً. وبلغت سنّ الأربعين وأنا أتأرجح بين الفاقة والثّراء، وبين الهدى والضلال، مليئاً بالرّذائل المكتسبة بحكم العادة، من دون ميل رديء في القلب، عائشاً كما طاب للأقدار أن أعيش، لا مبادئ مقدرة لي هداني العقل إليها، منصرفاً عن الواجبات عليّ من دون احتقار مني لها، ولكنني غير عارف إياها في أكثر الأحايين حق المعرفة.

وكنت، منذ شبابي، قد حددت حقبة الأربعين سنة هذه كفاية قصوى لمجهوداتي في سبيل تحقيق مراميَّ من كل نوع، وعقدت العزم، منذ بلوغي هذه السن، أياً كانت المرتبة التي أبلغها، على ألّا أحاول جاهداً في التخلي عنها، وأن أقطع باقي أيامي مكتفياً بما به كُفية يومي، من دون اهتمام بالمستقبل، ولما آن الأوان قمت بتنفيذ هذا العزم من غير

مشقة، ومع أن ثروتي في هذا الوقت كانت توشك أن تتخذ مستقرّاً أثبت، فلقد تخليت عنها من دون أسف بل برضى ولذّة، ولما تخلصت مما كان يراودني من الأحلام ومن تلك الآمال الباطلة، استسلمت كل الاستسلام إلى البطالة وإلى راحة الذّهن وقد كنت دائماً أتذوقها فوق كل شيء وكنت دائم الميل لها. فهجرت العالم وأُبّهته وأباطيله، ونبذت كل زخرف، فلا سيف بعد ذلك ولا ساعة ولا جوارب بيض، ولا ثوب مزركشاً بالذّهب، ولا قبعة رأس، ولا شعر مستعاراً منمّقاً، بل كان كل ما ألبسه ثوباً خشناً من الجُوخ، وأفضل من هذا ما عملته: لقد استأصلت من قلبي جميع ميول الجشع والشهوات التي تجعل لما نبذتُه ثمناً وقيمة، وتخليتُ عن المنصب الذي كنت أشغله حينذاك والذي لم أكن له أصلاً، وأخذت أنسخ القطع الموسيقية بأجر معلوم على الصفحة، وقد كنت أتذوق هذا العمل دائماً.

ولم أقتصر، في سبيل إصلاح نفسي على الأمور الخارجية لأني شعرت بأن مثل هذا الإصلاح يقتضي إصلاحاً آخر أشق وأبعد مدىً، ولكنّه ألزم ضرورة في الآراء، فأقبلت أُخضع باطنتي لفحص دقيق ضبطَها ونظّمها، طول ما تبقى لها من الحياة، على الشكل الذي كنت أريد أن أجدها عند مماتي.

إن ثورة كبيرة بدأت تتمخض في نفسي، وإن عالماً آخر روحياً أخذ ينكشف لناظري، فأحكام الرجال البعيدة عن الصواب، والتي لم أكن بعد أستطيع أن أستشف إلى أي حد سأكون يوماً ما ضحيتها، بدأت أشعر بتفاهتها، وحاجتي النامية إلى امتلاك مقتنىً آخر غير الشهرة الأدبية، التي لم يكد يلحقني بعد غبارها حتى تقززت نفسي

منها، ورغبتي في أن أخطّط، حتى آخر أيامي، طريقاً أقلّ مدعاة إلى الضلال والحيرة من تلك التي سلكتها في أجمل نصف من عمري، كل هذا اضطرني إلى القيام بهذا الاستعراض الكبير الذي كنت أشعر بالحاجة إليه منذ زمن طويل. وها أنا ذا شارع فيه، ولن أهمل شيئاً في وسعي لأقوم بهذا العمل أحسن قيام.

ويمكنني أن أؤرخ، من بدء هذه الحقبة، تاريخ انقطاعي عن الناس وهذا التذوق الشديد للوحدة وهو الذي لم يفارقني منذ ذلك الوقت، والعمل الذي كان عليّ أن أشرع فيه ما كان يمكن القيام به إلا في عزلة تامة، كان يستدعي تأملات طويلة هادئة لا تتوفر وسط ضوضاء المجتمع، وكان هذا يضطرني لأن أتخذ، إلى وقت، نمطاً آخر من الحياة لم أعتم أن اعتدته؛ فوجدتني بعد ذلك في حال بلغ مني الرضا بها أن لم أنقطع عنها في ما بعد، إلا اضطراراً ولمدة قصيرة، ولكني لم ألبث أن استعدتها عن طيبة خاطر وألزمت نفسي بها حالما تيسَّر لي ذلك، ولما أرغمني الناس، في ما بعد، على العيش منقطعاً وحيداً، وجدت أنهم، إذ حجزوني ليسببوا شقائي، قد عملوا لإسعادي أكثر مما عرفت أن أعمله أنا.

وأكببت على العمل الذي شرعت فيه بحميّة تتناسب، في وقت واحد، مع أهميته ومع الحاجة التي كنت أشعر بها نحو هذا العمل، وكنت أعيش وقتئذٍ مع فلاسفة معاصرين لا يشبهون القدماء في شيء. وبدلاً من أن يزيلوا شكوكي ويحددوا ارتباكاتي، زعزعوا يقيني في جميع النقاط التي كانت أهمية معرفتها عندي فوق كلّ أهمية، لأنهم، إذ كانوا رسل إلحاد متّقدي الغيرة، وعقائديين جازمين متغطرسين،

فإنهم كانوا لا يتحملون إلّا بغضب أن يجرؤ امرؤ على أن يفكّر بخلاف ما يفكرون في مسألة ما. وقد دافعت مراراً عن وجهات نظري دفاعاً ضعيفاً، لكرهي للمحاجّة ولأني لم أُوتَ إلّا قليلاً من موهبة الدفاع عن الرأي، ولكني لم آخذ قط بمذهبهم الهدام، وهذا الثبات في وجه رجال غير متسامحين، كانت لهم مرام وأغراض، لم يكن من الأسباب التافهة التي أذكت نار عداوتهم.

إنهم لم يقنعوني ولكنهم جعلوا القلق يتسرّب إلى نفسي. إن حججهم زعزعت يقيني ولكنها لم تقنعني، لم أكن لأجد رداً شافياً، ولكني كنت أشعر أنه يجب أن يكون هناك ردّ، فكنت أتّهم نفسي بعدم الجدارة أكثر مما أتهمها بالخطأ، وكان قلبي يتولى الردَّ عليهم بأحسن مما يردُّ عليهم عقلي.

وأخيراً قلت في نفسي: أأترك أمري إلى الأبد موضع هُزْءٍ لهؤلاء السفسطائيين القوالين اللبقين الذين لا أثق بأن الآراء التي يذيعونها والتي يجتهدون في حمل الآخرين على الأخذ بها، هي حقيقة ما يرونه لأنفسهم؟ إن الأهواء التي تسيطر على مذهبهم وتعليمهم، والمصلحة التي لهم في أن يحملوا الآخرين على اعتقاد هذا أو ذاك، كل هذا يجعل محالاً أن ينفذ المرء إلى كنه ما يعتقدونه، أنفسهم. أمن الممكن البحث عن حسن النية لدى رؤساء أحزاب؟ إن فلسفتهم لغيرهم، ولا بد لي أنا من فلسفة خاصة. لأبحثنَّ إذن عنها بجميع قواي قبل فوات الأوان لتكون لي قاعدة سلوك ثابتة في ما تبقى من أيامي. ها أنا ذا في تمام نضج العمر، وفي ملء قوة الإدراك. أكاد ألمس الميل نحو غروب شمسي، فإذا تمهلت في الانتظار فلن يكون بوسعي، في قرار مؤجل،

أن أستعمل قواي الجسدية والعقلية لأنها تكون حينذاك قد أضاعت من نشاطها، وسيكون عملي وقتئذٍ أقل جودة مما أستطيع أن أعمله اليوم بأقصى جهد ممكن، فلْنتهزنَّ هذه الفرصة السانحة. هذا أوان إصلاحي الخارجي والمادي، فليكن أيضاً زمن إصلاحي العقلي والأدبي. لِأُحددنَّ في الوقت نفسه آرائي ومبادئي ولِأكوننّ، ما تبقى لي من الحياة، ما رأيت أنّه يجب أن أكون، بعد أن فكرت في هذا مليّاً.

وكنت أنفّذ هذا المشروع ببطء، على دفعات مختلفة، ولكن بكلّ ما استطعت من يقظة. وكنت أشعر أن راحتي مدة بقية حياتي ومصيري التام متعلقان به. وجدتني بادئ بدء في تيه من الارتباكات والمصاعب والاعتراضات، والالتواءات والظلمات، حتى سوّلت لي نفسي، أكثر من عشرين مرة، أن ألقيَ جانباً كلّ شيء، وأن ألتزم في قراراتي قواعد الفطنة الجماعية المتعارفة، من دون أن ألجأ إلى البحث في مبادئ كان يشق عليّ أن أجلوَ غوامضها. ولكن هذه الفطنة نفسها كانت بعيدة عني كل البعد، كما كنت أشعر بقلة جدارتي باكتسابها، وأن اللجوء إليها، لتكون رائدي ودليلي، هو كما لو أردت أن أبحث، في البحار، رغم الزوابع والعواصف، ومن غير دفّة ولا حُكٍّ[1] عن منارة صعبة المنال لا تهديني إلى مرفأ ما.

وثابرت، وللمرة الأولى في حياتي تشجّعت، وأنا مدين لهذه الشجاعة التي أحرزتها في كوني استطعت أن أتلقى المصير المريع الذي كان قد بدأ يكتنفني منذ ذلك الحين من دون أن يساورني ريب بدنوه. وبعد أن قمت بأدق البحوث وأصدقها، تلك البحوث التي لم يقم بمثلها

(1) الحك: "البوصلة".

قط إنسان ما، رسمت لحياتي كلها المشاعر التي لا بدّ لي منها، وإذا كان من الممكن أن أكون قد أخطأت في النتائج التي توصلت إليها، فأنا، في الأقل، على يقين أن خطئي لا يمكن أن يعد جريمة أؤاخذ عليها، لأنني بذلت جميع جهدي لاتقائها. ومع ذلك، فأنا لا أشك في أن ما تواضع عليه الناس فألفته منذ نعومة أظفاري وكذلك رغبات قلبي الخفية، قد مالت بكفة الميزان إلى أكثر الجهتين تعزية لي. إنه من العسير أن يمنع المرء نفسه من تصديق ما يشتهيه بحميّة، ومن ذا الذي ينكر أن المصلحة في قبول أو اطّراح أحكام الحياة الأخرى هي التي تحدد إيمان أكثر الناس بما يرتجونه أو يخافونه، ولست أنكر أن هذا جميعه كان من شأنه أن يخلب لُبّي عند إصدار حكمي، ولكن لم يكن في استطاعته أن يفسد حسن نيتي[2] لأني كنت أخاف أن أخطئ في كلّ شيء. فإذا كان كلّ شيء يقوم على ممارسة هذه الحياة واستعمالها فقد كان يهمني معرفته كي أستخلص منه، على الأقل، أجزل فائدة أمرها منوط بي وكي لا أكون مخدوعاً.

ولكن أخشى ما كنت أخشاه في هذا العالم، وأنا في الحال النفسية التي كنت أحسها، هو خشيتي من أن أعرِّض للهلاك مصير نفسي الأبدي في نظير اكتساب خيرات هذا العالم، تلك الخيرات التي لم تبدُ لي قط ذات ثمن كبير.

وإني أعترف أيضاً بأني لم أكن لأزيل دائماً، على صورة مرضية لي، هذه المصاعب التي كانت تُوقِعُني في الارتباك والتي كان الفلاسفة قد

(2) يجب ملاحظة هذا التأكيد ذي الأهمية، فإنه يكشف عن ناحية أساسية من الخُلُق، كثيراً ما جُهلت لدى روسو.

حشوا بها أذنيّ، في أغلب الأوقات، ولكني صمّمت، بعد لأي، على أن أعالج موادّ قلَّ أن يجد الذكاء الإنساني سبيلاً إلى معالجتها، وممّا أحاطت بي من كلّ ناحية أسرار لا يُنفد إليها واعتراضات لا تُحلّ، اتخذت في كلّ مسألة، الشعور الذي تبيّن لي ثبوتُه مباشرة والذي هو أكثر قبولاً للتصديق بنفسه، وذلك من دون أن أتوقف أمام الاعتراضات التي ما كنت أستطيع حلّها، والتي كان يمكن ردُّها باعتراضات أقلّ قوة، في قياس العكس. والطريقة التي يلجأ إليها العقائديون في الكلام عن هذه المواد لا تلائم إلّا الدجالين، ولكن لا بدّ للمرء أن يكون له شعور خاصٌّ به وأن يختاره بكلّ ما أوتي من نُضج في الحكم. وإذا كنا، رغم هذا، نقع في الخطأ، فالعدل يقضي بألّا ينزل بنا العقاب، لأن الخطيئة ليست خطيئتنا. هذا هو المبدأ الثابت الذي هو أساسُ أمني وطمأنينتي.

ثمّ إنّ نتيجة بحوثي الشّاقّة كانت تقريباً شبيهة بما أثبتُّه بعد ذلك في مؤلفي الذي ضمَّنتُه المجاهرة بعقيدة "النائب الأسقفي في مقاطعة سافوا"، ذلك المؤلف الذي خُفِّض شأنه وامتُهِنت كرامته في الجيل الحاضر، والذي يمكن أن يثير ثورة يوماً ما بين الناس، إذا قُدِّر للإدراك السليم ولحسن النية أن يولدا من جديد.

ومنذ ذلك الحين، وإذ لزمت الهدوء في نطاق المبادئ التي كنت قد تبنّيتها، بعد تأمل طويل مدروس، جعلت هذه المبادئ قاعدة ثابتة لسلوكي وعقيدتي، من دون أن التفت إلى الاعتراضات التي لم أستطع حلّها ولا إلى تلك التي لم أكن أتوقعها والتي كانت تتبادر جديدة إلى ذهني من وقت إلى آخر، وكثيراً ما أقلقتني ولكنها لم تزعزعني. كنت أقول دائماً لنفسي: ما هذه إلا حجج واهية ودقائق مفرطة في التجرُّد،

ليست بذات وزن إذا قيست بالمبادئ الأساسية التي تبناها قلبي، والتي تحمل كلّها طابع الرضا الباطني في حال سكوت الأهواء. أمن الممكن، في موادّ تفوق الإدراك الإنساني، أن يقلبَ بطناً لظهر، اعتراضٌ، لا أستطيع له حلاً، هيكلَ مذهبٍ متين جدّ المتانة، مترابط الأجزاء، متناسق هو وعقلي وقلبي وجميع ذاتي، مذهب يُعزِّزُه الرّضا الباطني الذي ينفر من تأييد كلّ مذهب غيره؟ لا، إن حججاً واهية لن تهدم أبداً الاتفاق الذي أتبيّنه بين طبيعتي الخالدة وبين تكوين هذا العالم والنظام الطبيعي الذي أراه سائداً فيه. إني أجد، في النظام الأدبي، الذي يتفق معه والذي كانت طريقة التدليل عليه نتيجة اجتهادي وبحثي، إني أجد ما أنا في حاجة إلى الاستناد إليه لأتحمّل ضروب شقاء حياتي.

وفي كلّ مجموعة أقْيِسَة غير هذه، أعيش بلا معين، وأموت بلا رجاء، وأصبح أتعس المخلوقات. فلنتمسكنَّ إذن بهذا التدليل الذي يكفيني وحده لأن أحيا سعيداً رغم القدر والبشر.

هذا القرار، وهذه النتيجة التي استخلصتها منه، ألا يبدوان كأن السماء نفسها قد أملتهما عليّ، كيما تُعِدّني للمصير الذي كان ينتظرني، وكيما تُؤهّلني لأن أتحمّله؟ وما كان يحل بي وما الذي كنت أمسيت عليه في ساعات الألم المبرّح التي كانت تنتظرني وفي الحال التي لا تُصَدَّق التي انتهيت إليها، لو أني - إذ وجدتُني بلا ملجأ ألجأ إليه لأفلت من مضطهديّ القساة، وبلا تعويض لي عما أنزلوه بي من الخزي في هذا العالم وبلا رجاء في أن تنالني العدالة التي كنت أستحقها - لو أني رأيتني مدفوعاً بي إلى أشأم مصير حل بإنسان على الأرض؟ ولكن هاأنا ذا أراني، وأنا ساكن إلى براءاتي، لا أتخيل إلا أني موضع توقير

وعطف من الناس، وبينما أشعر أن قلبي الذي يُقرأ في طيّاته والمليء بالثقة يختلج عطفاً بين أصدقاء وأشقاء، كان الخونة يشدّوني، خُفية، بسلاسل صنعت بأيدي حدادين من زبانية الجحيم. وإذ فوجئت بشرّ النوازل وأشدها إرهاباً لنفس أبية، وجُرِرتُ في حمأة من الوحل، من دون أن أتوصل قطّ إلى معرفة الفاعل أو السبب، وإذ طُرِحتُ في لجّة من العار ووحدة من الخزي، وإذ جُلبِبتُ برهيب ظلمات ما كنت أستشفّ من خلالها إلّا أشياء تُنذِر بالشؤم، إذ فوجِئتُ بجميع هذا، طُرِحتُ أرضاً، لأول وهلة، ولولا أني كنت قد اختزنت سلفاً قوى تعينني على النهوض من سقطاتي، لما استطعت النهوض قطّ من هذا الخور الذي ألقتني فيه هذه المصائب المباغتة.

ولم أقدّر ثمن هذه الوسائل التي ادّخرتها لصد النوازل إلّا بعد انقضاء سنوات من الانتفاضات عدت بعدها إلى نفسي واستعدت فيها روعي. ورأيت رأيي في جميع ما كان يجب علي أن أحكم فيه، فتبيّن لي، بالمقارنة بين مبادئي وحالي، أني أعير أحكام الرجال الصادرة عن حمق، وحوادث هذه الحياة القصيرة، اهتماماً فوق ما تستحقه، وأن هذه الحياة، إذ هي حال ابتلاء فقط، فإن هذه التجارب ليس لاختلاف أنواعها من أهمية، شرط أن تترتب عليها النتائج التي استلزمتها، ومن ثَمّ كلّما كانت البلايا عظيمة قوية مضاعفة كانت الحاجة أدعى لمعرفة تحمّلها. إن أقوى الآلام وأمرّها تُضيع من قوتها إذا نزلت بامرئ يرى من ورائها عوضاً كبيراً أكيداً، ويقيني بالحصول على هذا التعويض كان الثمرة الأولى التي جنيتُها من تأملاتي السابقة.

صحيح أنه في وسط الإهانات الكثيرة التي كانت تُكال

لي، وضروب الخزي الذي كان يكتنفني من كلّ ناحية، كنت أمر بفترات قلق وشكّ تُزعزع، من وقت إلى وقت، رجائي، وتُعكّر صفو طمأنينتي. كانت الاعتراضات القوية التي لم أتمكن من حلّها تعود عند ذاك إلى ذهني، بقوة أشدّ، فتبعثُ فيَّ الخَور في الساعات التي أكون فيها مثقلاً تحت عبء مصيري، فتوشك عزيمتي أن تثبط.

وكثيراً ما كانت حجج جديدة من تلك التي كنت أُزمِع التوسُّلَ بها تعود إلى ذهني فتسند تلك التي تُقلِقُني. عند ذاك كنت أقول لنفسي، وانقباض قلبي يكاد يكتم أنفاسي: آه ثم آه، من ذا الذي يكفيني شرَّ اليأس إذا كنت، في فظاعة مصيري، قد أصبحت لا أرى إلا أوهاماً في وسائل التعزية التي يمدني بها عقلي؟ وكذلك إذا عمد هذا العقل إلى هدم ما بناه بنفسه فأزال السند الذي هيّأه لي في البلية، سند الثّقة والأمل؟ فأي سند أعتمد عليه سوى أوهام لا تراود سواي في هذا العالم؟ إن جميع أبناء الجيل الحاضر لا يرون، في المشاعر التي أتغذى بها وحدي، إلا ضلالات وأفكاراً متأثرة بما تواضع عليه الناس. هؤلاء الأبناء سيرَون الحقيقة الواضحة للعيان في طريقة الأقيسة والأدلة المناقضة لطريقي. بل سيبدو لهم أنه ليس في استطاعتهم أن يصدقوا أني أتبنى هذه الطريقة بحسن نية، وأنا نفسي، فبإقبالي عليها، بكل ما أوتيت من إرادة، أجد فيها صعوبات لا تقهر يستحيل عليّ التغلب عليها، ومع ذلك فهي لا تمنعني من المثابرة. فهل أنا وحدي بين الناس حكيم مستنير؟ أفيكفي أن تكون الأشياء هكذا كي تكون ملائمة لي؟ وإذا لم يساند قلبي عقلي فهل أستطيع أن أُشيّد ثقةً نيّرة على ظواهر ليس فيها شيء من المتانة في عيون الناس، بل إنها قد تبدو لي أيضاً أوهاماً؟ ألم يكن من الأفضل أن أحارب مضطهديَّ بسلاح يضاهي سلاحهم، إذا

أتبنّى مبادئهم بدل أن أظل على أوهام مبادئي معرضاً لصدماتهم، من دون أن أعمل على صدِّها؟ أنا أعتقد أني عاقل، وأني لست إلّا مخدوعاً وضحية وشهيدَ خطأ باطل[3].

كم من مرة، في أوقات الشدة والتردد، كنت على أُهبة الاستسلام إلى اليأس، ولو أن هذه الحال دامت على هذا المنوال مدة شهر كامل، لانصرمت حياتي وقضي عليّ. ولكن هذه الأزمات كانت في ما مضى كثيرة الحدوث إلّا أنها كانت دائماً قصيرة، والآن، ولو أني لم أتخلص منها بعد تماماً، إلّا أنها أصبحت لا تقوى على تعكير راحتي. هذا القلق الضعيف الذي تنتابني الآن ألوانه لا يؤثر في نفسي أكثر مما تحدثه من الأثر في مجرى الماء، ريشة سقطت في نهر. وشعرت بأني، لو أعدت النظر في نقاط استقر عليها رأيي من قبل، فمعنى هذا أني ألتمِس أضواءً جديدة في حال زادت فيها قوة الحكم اكتمالاً، أو أني قد أصبحت أكثر غيرة على طلب الحقيقة، وأن هذه الغيرة لم تكن متوفرة لي في الوقت الذي أجريت فيه بحوثي. ولما لم أجد نفسي في إحدى هاتين الحالين لم أستطع وأنا في حال انهيار من اليأس، من دون استنادي إلى أسباب متينة، أن أفضل آراء تغريني، كي تزيد في شقائي، بمشاعر تبنّيتُها وأنا من العمر في قوة ومن العقل في كمال النُضج، وذلك بعد البحث والتمحيص وفي الوقت الذي كانت فيه حياتي تنعُم بهدوء جعل اهتمامي السائد التماس الحقيقة. واليوم وقد أصبح قلبي منقبضاً من الشقاء. ونفسي خاسفة لما ألقاه من ضروب المضادات، وخيالي نافراً شارداً، ورأسي مضطرباً لما

---

(3) كلّ هذه الفقرة تكشف عن ضروب القلق التي شعر بها روسو وهو يحاول التوفيق بين قلبه وعقله، ويُستدلّ منها على أن عقل روسو كان يهتزّ أحياناً.

يحيط به من الأسرار المُريعة، واليوم، إذ أجدُ جميع قواي قد أضعفتها الشيخوخة وآلام القلق فنفدت نوابضها، أأنتزع من نفسي، عن طيبة خاطر، جميع الموارد التي كنت قد هيأتها لأولي عقلي الهاوي ثقة أكبر من ثقتي بعقلي المليء النشيط فأستعيض عن البلايا التي أُقاسيها، من دون أن أستحق نزولها بي؟ لا، أنا لست أعقل ولا أكثر ثقافة ولا أحسن نية مني يوم أصدرت قراري بشأن هذه المسائل ذات البال، لم أكن أجهل يومئذٍ المصاعب التي تلقي اليوم الشّكّ في نفسي، إنها لم توقفني، وإذا كانت قد طرأت مصاعب جديدة لم يتنبّهوا إليها، فهي سفسطات من دقيق أفكار مجردة لا تستطيع أن تذهب بالحقائق الخالدة التي قُبِل بها في جميع الأزمنة، وارتضاها جميع الحكماء وجميع الأمم، والتي حُفِرت في القلوب البشرية بحروف لا تُمحى، وإذ فكرتُ ملياً عرفتُ أن الإدراك الإنساني الذي حصرَتْه الحواسّ في حدود معينة لا يمكنه أن يُلمَّ (لبعثها) وامتدادها. فاكتفيت إذن بما كان في متناولي من دون أن ألتفت إلى ما تجاوزه. وهذا القرار الذي اتخذتُه كان معقولاً فاتخذتُه قديمًا وتمسّكت به، على رضا من قلبي وعقلي، فعلى أي أساس أبني رجوعي عنه اليوم ولاسيما أن هناك أسباباً عديدة تدعوني إلى التمسك به؟ وأيّ خطر أتوقعه من أتباعه؟ وأي فائدة أجدُها في تركه؟ وإذا اقتبستُ مذهب مُضطهديّ فهل أتخذ أيضاً خُلُقيّتهم[4]؟

(4) إن مسألة الخُلُقيّة كانت في الواقع مسألة تدعو إلى الاختيار في القرن الثامن عشر. وهذه العبارة تتضمن طعناً بخُلُقيّة ديدرو الجوفاء المفخمة في رواياته، ثم في خُلُقيّة هلفسيوس وهولباك، تلك الخُلُقيّة النفعية التي تصلح، في الواقع، لخدمة مآرب عصبة من الدسّاسين وقد كان من الضروري لروسو أن تكون له خُلُقيّة تستمدُّ قوتها من معتقداتِها الدينية التي كان لا بدّ منها لتوازنه.

وهذه الخُلُقيّة التي لا جذور لها ولا ثمر، والتي يبسطونها بفخفخة، في كتب أو في مظاهر أُبّهة على المسارح، من دون أن ينفذ منها شيء إلى القلب أو إلى العقل، أو تلك الخُلُقيّة الثانية الخفيّة القاسية، التي هي مذهب جميع أشياعهم، والتي ليست الخُلُقيّة الأخرى إلّا قناعاً لها والتي يمارسونها وحدهم في مسلكهم والتي عملوا بها في سلوكهم معي. هذه الخُلُقيّة الهجومية البحتة لا تصلح أبداً للدفاع ولا تجدي إلّا في الهجوم. وما الذي تفيدني إياه وأنا في الحال التي أوصلوني إليها؟ إن براءتي وحدها تساندني في المصائب. وكم ذا تشتد أيضاً تعاستي، إذا انتزعت مني هذا المعين القوي الأوحد لأستبدل به سوء الخُلق؟ وهل أبلغ مبلغهم في فنِّ إضرار الناس؟ وإذا تيسَّر لي ذلك فمن أي داء يشفيني الأذى الذي أكون قد أنزلتُه بهم. إني أفقد تقديري لنفسي ولا أكسب عوض ذلك شيئاً.

وهكذا، وبينما أنا أدلي بهذه البراهين، توصلت إلى أن أمسك نفسي عن أن تتزعزع وتتحول عن مبادئي بحجج خداعة، واعتراضات لا تُحل، ومصاعب تتجاوز متناولي بل هي قد تتجاوز متناول الذهن الإنساني. واستقر عقلي في أمتن مستقر أمكنني أن أثبته فيه، واعتاد أن يستريح ثمة في ظل وجداني حتى أصبح كلّ مذهب غريب، قديماً كان أم حديثاً، لا يقوى على أن يُقلقَ أو يُعكّر صفوَ راحتي ولو لحظة ما. وإذ كان الانهيار وخمول الذهن قد حلّا بي، فقد نسيت حتى البراهين التي كنت أبني عليها معتقدي ومبادئي، ولكنني لن أنسى أبداً النتائج من الآن فصاعداً، ألا فليُقبِلِ الفلاسفة ويُماحكوا في هذه النتائج، فإنهم سيُضيعون وقتهم سُدىً. ثم إني سأتمسّك، ما بقيت لي من الحياة صبابة، بالقصد الذي اخترتُه حين كنت في حال أستطيع فيها أن أحسن الاختيار.

وإذ أنا مطمئن لهذه الاستعدادات، فإني أجد فيها، مع رضاي عن نفسي، الأمل والتعزية اللذين أنا في حاجة إليهما في حالي الحاضرة. وليس من الممكن أن عزلة تامة كعزلتي، دائمة كل الدوام، مليئة بالحزن والوحشة، وأن العداوة الحساسة كلّ الإحساس، الدائمة العمل، عداوة الجيل الحاضر وما ترميني به من خزي بلا انقطاع – قلت ليس من الممكن ألّا يلقي بي كل هذا في أحضان الخور والانهيار؛ وإذا ما وجدتني مزعزع الأمل، فإن الشكوك المثبطة للهمم تعود من وقت إلى وقت إلى تعكير صفاء نفسي فتملؤها حزناً وكآبة. وعند ذاك، إذ أراني عاجزاً عن ممارسة أعمال الذهن، اللازمة لإدخال الطمأنينة إلى نفسي، فإني أشعر بحاجة إلى تذكر ما صممت عليه قديماً، فضروب العناية، والانتباه، وإخلاص القلب، كل هذا الذي تكلفته في سبيل ذلك التصميم يعود عندئذٍ إلى ذاكرتي ويعيد إليّ ملء ثقتي. وهكذا فإني أطِّرح جميع الفكر الجديدة كما تُطَّرح الأخطاء المشؤومة التي ليس لها إلا مظهر مزيّن لا تصلح إلّا لإقلاق راحتي.

وإذ أصبحت هكذا محصوراً في نطاق معلوماتي القديمة، فإنه لم يُتَح لي كمثل سولون أن أتعلم كل يوم وأنا أتجه إلى الشيخوخة، بل يجب أن أحترز من ذلك الافتخار الذي يكتنفه الخطر والذي يقوم بإرادة التعلم لما أصبحت منذ اليوم عاجزاً عن إجادة معرفته. ولكن إذا كان لم يبقَ لي إلّا القليل مما أرجو أن أُحصِّله من أضواء المعرفة النافعة، فقد تبقى الكثير مما يجب أن أكتسِبَه من فضائل ضرورية لي في الحال التي أنا فيها. فقد آن الأوان الذي حُقَّ عليّ فيه أن أغني نفسي وأزيّنها بكسب تستطيع أن تحمله معها في اليوم الذي تتخلص فيه من هذا الجسد الذي يحجبها عن النظر ويُعميها، فتظهر لها الحقيقة سافرة،

وتبصر تفاهة جميع هذه المعارف التي يعتزُّ بها علماؤنا المزيفون اعتزازاً باطلًا، وتتألم عندئذٍ وتأسف أن قد أضاعت في هذه الحياة أوقاتاً في سبيل اكتساب هذه المعارف.

ولكن الصبر والرّفق والتّسليم والنزاهة والعدل الذي لا يحابي، هي كلّها مقتنىً يحمله المرء معه، مقتنىً يمكن أن يحرز الغنى به من دون انقطاع ومن دون أن يخشى أن يسلبه إياه سالب ولو كان الموت. وسأكرّس ما بقي من شيخوختي للقيام بهذه الدراسة النافعة وحدها. وما أسعدني لو أني باستكمالي لفضائل نفسي، أعرف أن أخرج من الحياة لا أحسن مما أنا - لاستحالة إمكان هذا - ولكن أكثر فضيلة مني يوم دخلتها.

النزهة الرابعة

أكثر ما يستهويني ويفيدني، من الكتب القليلة التي ما زلت أقرؤها أحياناً، قراءة بلوتارخوس، لقد كانت أولى قراءاتي في مطلع حياتي وستكون آخر ما أقرؤه في شيخوختي، وهذا المؤلف هو الوحيد الذي لم أقرأه مرة إلّا جنيت منه ثمرة من ثمار المعرفة. وأمس الأول كنت أقرأ من مؤلفاته الخُلُقيّة بحثه الموسوم بعنوان: "كيف يستطيع المرء أن يجني فائدة من أعدائه". وفي اليوم نفسه وبينما كنت أرتّب بعض الكتب التي أرسل بها إليّ مؤلفوها، وقعت عيني على جريدة من جرائد الأب روزيه عنونها بهذه العبارة: "إلى الذي كرّس حياته للحقيقة". وكنت أدرك تمام الإدراك طرق الإيهام في التعبير التي يلجأ إليها أولئك السادة، فأدركت أنه إنما أراد، من وراء هذا التعبير المهذّب، أن يفصح لي عن شيء يُناقض الحقيقة: ولكن على أيّ أساس بنى قوله؟ ولمَ هذه السُّخرية؟ وما موضوع ما تناوله في هذه الجريدة؟ وللاستفادة من دروس الرجل الطيب بلوتارخوس عقدت العزم على أن أُخصص نزهة الغداة للكلام على رذيلة الكذب، في ما يتعلق بي، وثبت لي صواب الرأي الذي كنت وقفت عنده وهو أن الحكمة المكتوبة على

معبد دلف وهي: "اِعرف نفسك بنفسك" لم تكن مبدأ يسهُل اتِباعُه كما اعتقدتُ ذلك في كتابي المسمى: **الاعترافات**[1].

وفي الغداة واصلت نزهتي لأنفّذ القرار الذي ألزمتُ به نفسي. فكان أول خاطر مرَّ ببالي، بعد انعكافي على التفكير، تذكُّري لكذبة بشعة كذبتُها في مطلع شبابي[2]، وقد عكرت ذكرى هذه الأكذوبة جميع أيام حياتي، وها هي تعود إلى ذهني في شيخوختي فتبعث الغمَّ في قلبي الذي يتملكه الحزن من نواحٍ أخرى.

وهذه الأكذوبة التي هي بنفسها جريمة كبرى وجب أن تُعدَّ أيضاً جريمة أكبر، بما ترتب عليها من نتائج ما زلت أجهلها إلى اليوم، يحملني الوجدان دائماً على عدِّها من أقسى النتائج الممكنة. ولكن بالرجوع إلى الحال النفسية التي كنت عليها يوم وقعت تلك الأكذوبة يتضح أنها لم تكن إلّا ثمرة حياء شنيع لا نتيجة سوء نية، بقصد الضرر بتلك التي كانت الضحية، وأستطيع أن أقسم بأغلظ الإيمان وأنا متجه بوجهي إلى السماء أنني في اللحظة نفسها التي انتزع فيها مني هذه الأكذوبة حياءٌ لم أستطع التغلب عليه، كنت أود أن أبذل دمي إلى

---

(1) في سنة 1768 التقى روسو، في مدينة ليون بالأب فرانسوا روزيه الذي أخذ يجمع معه الأعشاب والنبات. وبعد ذلك بقليل قدم الأب روزيه باريس واشترك في تحرير جريدة **الطبيعيّات** التي تولى في ما بعد إدارتها بعد أن أعاد إليها اسمها الأول وهو: "ملاحظات على علم الطبيعيات وعلى التاريخ الطبيعي وعلى الفنون". وقول روسو: "جريدة من جرائد الأب روزيه" يعني نسخة من هذه الجريدة، لأنه لم يكن يومئذٍ للأب المذكور عمل صحفي غير هذا.

(2) إشارة إلى الكذبة التي اتهم بها الخادمة مريون، في مدة إقامته للمرة الأولى في مدينة توران، بأنها سرقت شريطة كان هو الذي سرقها (انظر كتاب **الاعترافات** الفصل الثاني).

آخر نقطة، عن طيب خاطر، كي أُلقي تَبِعة الجريمة عليّ وحدي، تلك الأزمة العصبية التي انتابتني لا أستطيع أن أُعلِّلها إلّا بقولي الذي كان يؤيده إحساسي: إن طبعي الحيي في تلك اللحظة قد تغلب على جميع رغبات قلبي.

إن تذكري لهذا الفصل المخزي وما تركه من مُرِّ أسف في نفسي قد أوحى إليّ، إلى الأبد، روح الكراهية لهذه الرذيلة الممقوتة، وصانني منها بقية أيامي، وإذ كان عليّ أن أختار لنفسي شعاراً، أحسست أني خلقت لأستحِقَّ هذا الشعار وأصبحت لا أشُكُّ أني جدير به، ولكني عندما قرأت عبارة الأب روزيه، أقبلت أمتحن نفسي امتحاناً أدق، يستدعي مزيداً من العناية.

عندئذٍ تلمَّستُ جاهداً معرفة ما في نفسي، وإذا بي أُفاجأ بكثرة ما لفّقتُه من الأشياء التي أذكر أني أوردتها على أنها "حقائق" في الوقت نفسه الذي كنت فيه فخوراً، في ذات نفسي، بحبي للحقيقة، فضحيت لها بطمأنينتي وبمصالحي وبشخصي، بعيداً عن المحاباة بعداً لا أجد له مثيلاً بين الناس.

وكان أشدّ ما أدهشني أني عند تذكري هذه الأشياء المُلفّقة لم يداخلني أقلّ ندم حقيقي، أنا الذي يُكِنُّ في قلبه من استنكار البُهتان واستفظاعه ما لا يضاهيه شيء آخر، وأنا الذي يقتحم ضروب التعذيب راضياً هازئاً، إذا دعت الحال، لأجتنب أن أقول كذباً، فلمَ أراني، بدوافع غريبة تنافي العقل والمنطق، أكذب هكذا، عن طيب خاطر، من دون ضرورة ولا فائدة، وبأيّ تناقض غير معقول ولا مفهوم، أراني لا أشعر بأقلّ أسف على هذا، أنا الذي ذاق مرارة تبكيت

الوجدان والندم، ولايزال يذوقها، طوال خمسين سنة؟ ولم أكن قطّ صلب الرأي أتمسك بأخطائي، إن الإلهام الغريزي يُحسن دائماً قيادتي، ووجداني قد احتفظ بنزاهته الفطرية، ومع ذلك أتراه قد تأثر استجابة لصوت منافعي؟ كيف يحتفظ هو باستقامته كلّ الاحتفاظ في الأحوال التي فيها يستطيع الإنسان، وقد أرغمته أهواؤه، أن يعتذر بضعفه، ثم هو يفقد هذه الاستقامة في الأشياء التي لا يؤبه لها، وحين لا عذر على الرذيلة. لقد رأيت أن في حل هذه المسألة عدالة الحكم الذي كان عليّ أن أصدره على نفسي في هذه النقطة، وهاك ما توصلت إلى بيانه بعد البحث:

أذكر أني قرأت في كتاب من كتب الفلسفة: أن الكذب هو إخفاء حقيقة يجب أن يُجهر بها، فينتج من هذا التعريف أن السكوت عن حقيقة ليس المرء بملزم أن يجاهر بها، لا يعدُّ كذباً، ولكن الإنسان الذي، في مثل هذه الحال، لا يكتفي بكتمان الحقيقة بل يجاهر بما يضادها، أفيكذب هو أم لا؟ إذا استند إلى التعريف الذي أوردناه فلا يصحُّ القول إنه قد كذب. لأنه إذا أعطى المرء نقوداً مزيفة لشخص لا يدين له بمال، فإنه قد خدعه بلا شكّ، لكنه لم يسرقه.

وهنا تعرض لنا مسألتان تقتضيان بحثاً، وكلاهما من الأهمية في مكان عظيم: الأولى متى وكيف نحن مدينون للآخرين بقول الحقيقة، لأننا لسنا ملزمين بها دائماً، والثانية، أهناك أحوال يُسوِّغ لنا فيها أن نخدع الناس عن سلامة نية؟ أنا أعلم أن هذه المسألة الثانية قد صار الفصل بها، سلباً في الكتب، حيث لا تُكلّف الخلقية الصارمة الداعي إليها شيئاً، مهما اشتدت نواصيها، كما فُصِل فيها إيجاباً في المجتمع حيث

تُعدُّ تعاليم الكتب الأخلاقية أقاويل لا يمكن العمل بها، فلنترك إذن هذه المراجع التي تتناقض ولنحاول حلَّ هاتين المسألتين طبقاً لمبادئي.

إن الحقيقة العامة المجردة هي أثمن مقتنى، والإنسان من دونها أعمى فهي عين العقل. بها يتعلم الإنسان أدب السلوك، وأن يكون على ما يجب أن يكون، وأن يعمل ما يجب عليه عمله، وأن يتجه بأعماله إلى غايته الحقيقية، والحقيقة الخاصة الشخصية ليست دائماً خيراً، فهي أحياناً شر، وكثيراً ما تكون أمراً لا يؤبه له.

والأشياء التي لا بدّ للمرء أن يعرفها، لأن معرفتها ضرورية لسعادته، ليست بكثيرة، ولكن أياً كان عددها فإنها مقتنىً له، يَحِقُّ للمرء أن يطالب به حيث يجده، ولا يستطيع أحد أن يحرمه إياه من دون أن يرتكب أشنع المظالم وأبشع أنواع السرقات، لأن هذه المعارف مَشاع بين الناس ونشرها بينهم وإطلاعهم عليها لا يحرمان صاحبها إياها.

وأما الحقائق التي ليس لها شيء من النفع، لا للتثقيف ولا للفائدة العملية، فكيف تكون ملكاً مستحقّ الأداء وهي ليست بملك؟ وأما الملكية لا تبنى إلا على المنفعة، فلا يمكن أن تكون ملكية حيث لا منفعة. ويُمكن المطالبة بملكية أرض مُجدبة ولو كانت كذلك، لأنه من المستطاع على الأقل السكن فوق تربتها؛ ولكن واقعاً ما تافهاً لا يؤبَه له من كلّ وجه ولا نفع منه لأحد، حقيقياً كان أم كاذباً، لا يمكن أن تكون له أهمية لدى أحد. وفي النظام الخُلُقيّ كما في النظام الطبيعي لا شيء غير نافع، ولا شيء يمكن أن يكون مستحقاً واجب الأداء مما لا يصلح لشيء، وكي يكون الشيء مفروضاً أداؤه، يجب أن يكون نافعاً أو يمكن أن يكون نافعاً. وهكذا فإن الحقيقة الواجب إظهارها يهتم

بها العدل. وفي التمسك بالحقيقة وتطبيقها على الأشياء الباطلة التي لا قيمة لها والتي لا تجدي معرفتها، انتهاك لحرمة اسم الحقيقة، فالحقيقة المجردة من كل نفع، ولو كان هذا النفع ممكناً، لا يمكن إذن أن تكون شيئاً واجب الأداء، ومن ثم فمن سكت عن قول مثل هذه الحقيقة أو قنّعها بقناع، فإنه لا يكذب أبداً.

ولكن، أهناك مثل هذه الحقائق العقيمة كل العقم من جميع الوجوه ولجميع الناس؟ هذه مسألة جديرة بالمناقشة سأعود إلى البحث فيها في ما بعد. وأما الآن فعلينا أن ننظر في المسألة الثانية.

أن لا نقول ما هو حق وأن نقول ما هو كذب هما أمران يختلفان كلّ الاختلاف، ولكن النتيجة المترتبة عليهما يمكن أن تكون واحدة، لأن هذه النتيجة هي بلا شك واحدة كلّما كانت المعلولية باطلة لا قيمة لها، وحيثما كانت الحقيقة لا طائل تحتها، فالخطأ المعاكس لا طائل تحته أيضاً، ينتج من هذا أنه في مثل هذه الأحوال، من يخدع بقوله عكس الحقيقة ليس بأكثر ظلماً ممن يخدع بالسكوت عنها، لأنه، في ما يتعلق بالحقائق غير النافعة، ليس أسوأ من الخطأ إلّا الجهل. أن أعتقد أن الرمل الذي في قاع البحر هو أبيض أو أحمر، أمر لا يدعو إلى اهتمامي أكثر مما يدعو إليه جهلي اللون الذي هو عليه ذلك الرمل. وكيف يمكن أن يكون المرء ظالماً إذا لم ينزل بأحد ضرراً؟ فإن الظلم لا يقوم إلّا بإضرار الناس.

ولكن هاتين المسألتين، وقد تقررتا هكذا باختصار، لا يمكن أن تزوداني بتطبيق أكيد في ما يتعلق بالواقع، من دون اللجوء إلى إيضاحات كثيرة لا بدّ منها للقيام بهذا التطبيق بالضبط في جميع الحالات التي قد

تعرض، لأنه إذا كان الإلزام بقول الحقيقة لا يبنى إلّا على فائدتها، فكيف أقيم نفسي حكماً على وجود هذه الفائدة، ففي أكثر الأوقات تجد فائدة إنسان تسبب بضرر لآخر، والمصلحة الخاصة هي دائماً، على وجه التقريب، منافية للمصلحة العامة. فما العمل في مثل هذه الأحوال؟ أفيجب تضحية مصلحة الغائب لأجل المخاطب؟ أيجب أن تكتم الحقيقة أم يجب المجاهرة بها، وفي هذه الحقيقة ضرر لهذا ونفع لذاك؟ أيجب وزن كلّ ما يقال في ميزان المصلحة العامة أم في ميزان العدل الموزع بين الناس؟ وهل أنا على يقين بمعرفتي جميع جوانب الشيء كي لا أفضي بالمعلومات التي أحرزها إلّا وأنا متقيد بقواعد الإنصاف؟ وفوق ذلك، وإذ أنا أنظر في ما أنا مدين به للآخرين، هل نظرت ملياً في ما أنا مدين به لنفسي وفي ما أنا مدين به للحقيقة وحدها؟ وإذا كنت أنزل ضرراً بأحد بأن أخدعه، فهل يترتب على هذا ألّا أضرّ بنفسي، وهل يكفي أني لم أكن قطّ ظالماً كي أكون دائماً بريئاً؟

يا لها من مناقشات مُحيّرة يسهُلُ التخلُصُ منها بأن يقول المرء في نفسه: لأكوننَّ دائماً صادقاً مهما نتج من ذلك. إن العدالة نفسها قائمة في حقيقة الأشياء، والكذب هو دائماً بغي (وعسق)، والخطأ هو دائماً خدعة إذا كان ما يذهب إليه الإنسان مخالفاً للقاعدة التي تفرض عليه ما يجب أن يعمله ويعتقده: وأياً كانت النتيجة التي تترتب على قول الحق، فإن قائله بعيد عن أن يتهم لأنه لم يضِف إلى الحقيقة شيئاً من عنده.

ولكن هذا قطع في المسألة لا حلّ له، فإن الغرض من هذا البحث لم يكن التوصل إلى معرفة هل الخير كلّه بأن تقال الحقيقة دائماً،

ولكن معرفة هل المرء ملزم أيضاً بأن يميز الأحوال التي تكون فيها الحقيقة واجبة الظهور من تلك التي يمكن فيها كتمانها من دون ظلم أو إلباسها قناعاً من دون كذب، أجل إني رأيت حالات كهذه موجودة حقاً. وإذن فالمطلوب هو أن نبحث عن قاعدة لنعرف هذه الحالات ونحددها تحديداً جلياً.

ولكن من أين نستخرج هذه القاعدة والدليل على عصمتها عن الخطأ؟ في جميع المسائل التي تتصل بعمل الأخلاق والتي كمثل هذه يصعب حلّها، وجدتني دائماً قادراً على حلّها بإلهام من وجداني لا بأضواء من عقلي، والإلهام الغريزي الأخلاقي لم يخدعني قطّ؛ لقد احتفظت إلى اليوم بنقاوته في قلبي احتفاظاً كافياً يُمكّنني من الوثوق به، وإذا هو لزم الصمت في بعض الأحيان أمام أهوائي، في سلوكي، فإنه يستعيد سلطانه التام على تلك الأهواء، في ذكرياتي. هناك أراني أحاكم نفسي بصرامة قد تساوي في شدتّها تلك التي سأحاكَم بها أمام الديّان الأعلى بعد هذه الحياة.

والحكم على أقوال الرجال بالنتائج التي تنتجها هو، في أكثر الأحايين، سوء تقدير لها. فهذه النتائج، عدا أنها لا تكون دائماً محسوسة وسهلة معرفتها، تتبدل إلى ما لا نهاية له، كالظروف التي تُلقى فيها هذه الأقوال. ولكن تلك النية التي يُضمرها صاحب تلك الأقوال، هي وحدها التي تقدرها وتُعيّن درجتها من الخبث أو الطيبة. وقول ما ليس بالحقيقة لا يعد كذباً إلا إذا قصد به الخديعة، وقصد الخديعة هو نفسه ليس مصحوباً دائماً بقصد الإضرار لكنه قد يرمي أحياناً إلى غاية أخرى معاكسة. وكي يكون الكذب بريئاً، لا يكفي أن لا يكون

فيه قصد الإضرار صريحاً، بل يجب فوق ذلك التيقُّن أن الضّلال الذي يُرمى المخاطبون في أحضانه، لا يمكن أن يوقع الضرر بهم أو بغيرهم في أي شكل كان. ومن النادر والعسير أن يتمكن المؤمن الحصول على هذه الثقة، ولذلك كان أيضاً عسيراً ونادراً أن تكون أكذوبة ما بريئة كلّ البراءة، والكذب في سبيل نفع النفس خديعة، وفي سبيل نفع الآخرين غشّ. والكذب بقصد الإضرار نميمة، وهو شرّ أنواع الكذب، والكذب من دون استفادة أو من دون الإضرار، إضرار الناس، ليس كذباً، إنه افتعال كذب أو تلفيق.

والتلفيقات التي يكون الغرض منها أخلاقياً أدبياً تسمى أمثالاً. وإذا كان الغرض منها أن الحقائق النافعة تستر بصور محسوسة يستسيغها الذوق، لا يعمد المؤلف، في مثل هذه الأحوال، إلى إخفاء كذب الواقع الذي هو لباس الحقيقة، وهكذا فمن سَردَ مثلاً، على أنه مثل، لا يكذب من أي وجه كان.

وهناك تلفيقات تافهة كل التفاهة كأكثر القصص والروايات التي لا تحتوي على تثقيف حقيقي من أي نوع كان والتي لا غرض لها إلّا التسلية، وهذه الروايات، العاطلة من كلّ نفع أخلاقي، لا يمكن تقدير قيمتها إلّا بقصد من اختلقها، وعندما يسردها وهو يؤكد أنها حقائق واقعة، فلا نستطيع أن ننكر عندئذٍ أنها أكاذيب حقيقية. ومع ذلك، فأي الناس أعار اهتماماً لهذه الأكاذيب؟ ومن ذا الذي وجه إلى مؤلفيها توبيخاً جدّيّاً؟ ومن قبيل التمثيل أقول: إذا كان هناك موضوع أخلاقي في رواية معبد جنيد(3)، فإن هذا الموضوع مغشّىً تماماً ومفسدٌ بالتفاصيل

(3) معبد جنيد (*Le temple de Gnide*).

الشّهوانية وبالصور الخلاعية. وما الذي فعله المؤلف ليغطي هذا بطلاء من الحشمة؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة لمخطوط إغريقي وسرد تاريخ اكتشاف ذلك المخطوط بصورة من شأنها إقناع القرّاء بصحة مقاله[4]، فإن لم يكن هذا هو الكذب الإيجابي بعينه، فليقل لي الناس كيف يكون الكذب؟ ومع ذلك فمن ذا الذي تصدى للمؤلف ليجعل من كذبه هذا جرماً ويعامله معاملة الخداعين؟

وعبثاً يقول قائل إن ما ذهب إليه المؤلف دعابة، وإنه، وإن يكن قد أكد، لم يُرِد إقناع أي كان، وبالفعل لم يقنع أحداً، وإن القراء لم يَشُكُّوا لحظة في أنه مؤلف الكتاب الذي زعم أنه إغريقي، وأنه هو المترجم، وها إني أردّ على هذا: إن دعابة كهذه التي لا غرض لها، تكون، إذا صح وصفها بهذا الوصف، عبث أطفال، وإن الكاذب يكون قد كذب حقاً عندما يؤكد صحة قوله ولو أنه لم يُقنع، وإنه يجب أن يُنحّى من الجمهور المثقف جماعات من القراء البسطاء السريعي التصديق أثّر بهم تاريخ المخطوط، وقد سرد حوادثه مؤلف جدّيّ يبدو في ما سرده حسن النية، وهكذا فإن هؤلاء القراء شربوا، بلا حذر، في كوب ذي شكلٍ متناهٍ في القدم، السُّمَّ الذي كانوا على الأقل تخوَّفوا من شربه لو أنه قُدِّم لهم في إناء من صنع المعاصرين.

---

(4) يبدو أن هذه الحيلة اللبقة، التي كان أول من لجأ إليها مؤلفو الروايات المنطوية على الفضائح، قد أضحت شائعة الاستعمال بين الكُتّاب بظهور مؤلف مارانا سنة 1684 المعنون باسم الجاسوس التركي والذي كان أنموذجاً لكتاب رسائل فارسية. إذن لم يكن ممكناً أن ينخدع قارئ بهذه الحيلة. وكان روسو أكثر لباقة ولكنه لم يكن أكثر صدقاً يوم جعل الشك يحوم حول حقيقة رسائل جولي وسان برو، وهي الرسائل التي كان معظم القراء يعتبرونها مراسلات حقيقية خلع عليها مؤلفها ثوب الرواية فقط.

وسواء أكانت هذه التمييزات مدرجة في الكتب أم لا، فإنها مثبتة في قلب كلّ رجل حسن النية تجاه نفسه لا يريد أن يأتي ما يوّبخه عليه وجدانه. ومن قال قولاً غير صادق جرّاً لنفع يصيبه، فليس بأقل كذباً منه لو قال هذا القول ليُضَّر بغيره، مع أن الكذب، في الحالة الأولى يكون أقل إجراماً. وإيثارك بالنّفع من يجب ألّا ينال النّفع، هو إخلال بالنظام وخرق للعدالة، ونسبتك لنفسك أو لغيرك، عن كذب منك وبهتان، عملًا يستدعي مدحاً أو لوماً، واتهاماً أو تبرئة، فهو عمل غير عادل، ومن ثَمَّ فكل شيء يضادّ للحقيقة ويجرح العدالة بأي شكل كان، فهو كذب وبهتان، وهذا هو الحدّ بالضبط؛ ولكن كلّ ما ينافي للحقيقة ولا يعني العدالة في وجه من الوجوه، ليس إلّا تلفيقاً، وإني أعترف بأن كلّ من يلوم نفسه على محض تلفيق يحسبه كذباً، فهو أرق وجداناً مني.

وما يسمونه الكذب "بنيّة نيل الرّضا، والنّفع" هو كذب حقيقي، لأن المداهنة لمصلحة الآخرين أو لمصلحة النفس ليست بأقل ظلماً من المداهنة لنيل ما هو منافٍ لهاتين المصلحتين. وكلّ من مدح أو ذم من غير حق، فقد كذب إذا كان الكلام موجهاً إلى شخص حقيقي، وأما إذا كان المدح أو الذم موجهين إلى كائن خيالي، فيمكن القائل أن يقول ما طاب له من دون أن يُنسب الكذب إليه، إلّا إذا كان يُبدي حكماً على العِبَر التي تستخرج من الوقائع التي يبتدعها فأصدر حكماً غير صادق، وذلك لأنه إذا كان في هذه الحالة لا يكذب في سرد الوقائع، فإنه يكذب في الحقائق الأخلاقية التي هي بالاحترام أولى جداً من الوقائع.

رأيت من هؤلاء الناس الذين يسمون "الصَّدُوقين" في العالم.

فكلّ صدقهم ينصرف، في المحادثات التافهة. إلى سرد الأمكنة والأزمنة والأشخاص سرداً أميناً، وإلى ضبط أنفسهم عن كلّ تلفيق، فهم لا (يُوشُّون) ظروف الأحوال ولا يبالغون، ولا يتنكّبون طريق الأمانة التامّة إذا كان حديثُهم لا يمَسُّ مصلحتهم.

ولكن إذا دار الحديث على معاملة لهم يسعون إلى إنجازها، أو دعت الحاجة إلى سرد واقعة تمسُّهم من قريب، فإنهم يصبغون حديثهم بجميع الألوان ليعرضوا ما يرمون إلى نيله من منفعة، وإذا كان الكذب يخدم أغراضهم وكانوا لا يريدون اللجوء إليه بأنفسهم، فإنهم يعززونه بلباقة ويتوسلون بوسيلة حتى يتبنّاه السامعون من دون أن يقووا على نسبته إليهم. ذلك ما تقضي به الفطنة؛ فوداعاً وداعاً أيها الصدق.

وأما من أسميه أنا الرجل "الصدوق" فإنه يعمل عكس هذا: ففي الأشياء التي لا يؤبه لها لا يُعير اهتماماً لتلك الحقيقة التي يُعنى بها الآخر كلّ العناية، ولا يأخذ على نفسه أن يُسلّي جماعة من الناس بوقائع ملفّقة لا تنتج حكماً ظالماً لمصلحة أي كان من الناس حياً أو ميتاً، أو لغير مصلحة أي كان. ولكن كلّ حديث يُحدِّثه وينتج لإنسان ما نفعاً أو ضراً، توقيراً أو تحقيراً، مدحاً أو قدحاً، ينافي العدل والحقيقة، فهو في عرفه كذب لا يقترب من قلبه ولا من فمه ولا من قلمه. فهو الصّدوق الصّدوق حتى في ما ينافي مصلحته، ومع ذلك فإنه لا يُجهد نفسه بأن يكون صادقاً في المحادثات التافهة؛ فهو صادق بألّا يحاول أن يخدع الناس، وهو أمين على الحقيقة التي يتّهمها مثل أمانته على الحقيقة التي يكرّمها، وهو لا يُموّه البتة أجراً لمغنم أو ضرّاً بعدو. إذن، فالفرق بين الذي أسميه صدوقاً والآخر الذي وصفته من قبل هو أن هذا الذي

يسميه المجتمع عصرياً، امرؤ أمين على كلّ حقيقة لا تكلّفه شيئاً، ولكنه لا يتجاوز هذا الحد في أمانته، وأن الصدوق في نظري لا يخدمها بمثل أمانة الثاني إلّا إذا دعته الحال إلى أن يضحّي بنفسه في سبيلها.

وقد يقول قائل: ولكن كيف توفّق بين هذا الفتور وحُميّا ذلك الحب للحقيقة حباً تُمجّدها به؟ أهذا الحبُّ مزيف، إذن، لأنه غير خالص يتحمل مزجاً؟ لا، إنّه صافٍ وصادق. ولكنه ليس إلّا انبثاقاً من حبّ العدل وهو يأبى أن يكون مزيفاً ولو كان، في الغالب، خيالياً. إن العدل والحقيقة في ذهنه كلمتان مترادفتان يستعمل الواحدة منهما بدل الأخرى على السواء. والحقيقة المقدسة عنده لا تتكون أبداً من وقائع لا قيمة لها، ولا من أسماء لا فائدة منها. بل هي أن ينسب بأمانة لكل من الناس ما يستحقه من أمور تتعلق به حقاً، سواء أكانت حسنة أم سيئة، مشكورة أو مذمومة، مشرفة أو غير مشرفة. فهو ليس بمزيّف لا أمام غيره، لأن نزاهته تأبى عليه ذلك ولأنه لا يريد الضرّ بأيّ كان عن غير حق، ولا هو بمزيّف أمام نفسه لأن وجدانه يأبى عليه ذلك، ولا يسعه أن يستحوذ على ما ليس له. إنه متمسك خاصّة بتوقيره لنفسه وهذا التوقير هو آخر مقتنىً يرضى بأن يستغني عنه، وهو يشعر بأن خسارة حقيقية قد نزلت به إذا هو أضاع هذا التوقير في سبيل اكتساب تقدير الآخرين. إنه قد يكذب أحياناً في أشياء لا يؤبه لها من دون تبكيت من وجدانه ومن دون أن يعتقد أنه قد كذب. ولكنه لن يكذب أبداً لإضرار الناس أو لجرّ مغنم له أو لغيره. وفي ما يتعلق بالحقائق التاريخية، ومسلك الرجال، والعدالة، والألفة الاجتماعية، والمعارف النافعة، في ما يتعلق بجميع هذا يضمن من الوقوع في الضلال، لا نفسه فقط، بل الناس أيضاً، وذلك بقدر ما يكون الأمر منوطاً به، وإذا كان

كتاب معبد جنيد مؤلفاً نافعاً فإن قصة المخطوط الإغريقي ليست إلّا تلفيقاً بريئاً، ولكنها تكون كذباً يستحق العقاب إذا كان المؤلف ينطوي على خطر.

تلك كانت قواعد وجداني في ما يتعلق بالكذب والحقيقة. وكان قلبي يتبع هذه القواعد اتباعاً آلياً قبل أن يتبناها عقلي، ثم إن الغريزة الأخلاقية قامت، هي وحدها، بتطبيقها. وإن الأكذوبة الإجرامية التي كانت ضحيتها ماريون المسكينة قد خلّفت لي في ضميري وخزات ندامة لا تمحوها الأيام وقتني طول حياتي، لا كلَّ كذبٍ من هذا النوع فحسب، بل أيضاً كلّ الأكاذيب التي يمكن، بأيّ وجه، أن تُضرَّ بمصلحة غيري أو بسمعته. وإذ عممت الإحجام عن كلّ كذب، أعفيت نفسي من تقدير فائدة الكذب المضرّ وكذب المداهنة وميّزتهما ومن تعيين حدودهما بالضبط، كما أني، إذ رأيت كليهما إجراميَّين، منعت نفسي عنهما.

وفي جميع هذا وغيره أثّر مزاجي في مبادئي، أو بالأحرى في عاداتي، تأثيراً بالغاً، لأني قليلاً ما سلكت على مجرى القواعد، أو لأني قليلاً ما تبعت فيها شيئاً غير دوافع طبيعتي. وما من كذب متعمد قارب فكري قط، ولا قلت كذباً التماساً لمغنم على الإطلاق، ولكني كثيراً ما كذبت لخجلي إرادة أن أفلت من الارتباك في أشياء لا يؤبه لها أو لا تتعلق إلّا بي، ذلك أني كنت إذا أردت أن أدعم حواراً، أجبرني بطء تفكيري وجفاف حديثي أن ألجأ إلى تلفيقات كي يكون عندي ما أقول. كنت، إذا اضطررت إلى الكلام ولم تتبادر إلى ذهني حقائق مسليّة، أسرد قصصاً ملفّقة لئلّا ألزم الصمت، ولكني، في اختراعي

لهذه الأقاصيص، كنت أعني، جهد الطاقة، ألّا تكون أكاذيب، أي أن لا تجرح العدل ولا الحقّ الواجب، وألّا تكون إلّا تلفيقات لا شأن لها عندي وعند جميع الناس. كانت رغبتي أن أستبدل بحقيقة الوقائع حقيقة أخلاقية أدبية أي أن أمثّل العواطف الطبيعية في قلب الإنسان، وأن أستخرج من تلك الحقيقة الأخلاقية الأدبية تعليماً نافعاً، وقصارى القول، أن أضع قصصاً أخلاقية وأمثالاً أدبية، ولكن كان لا بدّ لي من بديهة حاضرة لا أملكها، وسهولة في التعبير كي أتمكن من إحالة ثرثرة الحديث دروساً مثقِّفة. وإذ كان مجرى الحديث أسرع من أفكاري، وهذا كان يضطرني في أكثر الأوقات أن أتكلم قبل أن أفكر، فقد كان غالباً ما يوحي إليّ بأن أقول سخافات وسفاسف كان عقلي ينكرها وقلبي ينبذها كلّها بدرت من فمي، ولكنها، إذ كانت تسبق رويّتي، لم يكن من المستطاع أن تصلحها رقابة هذه الرّوية.

وبسبب هذا الدافع الأول أيضاً، دافع مزاجي الطبيعي الذي ما كنت أستطيع صده، كان الخجل والحياء غالباً ما ينتزعان مني، في آونات مفاجئة سريعة، أكاذيب لم يكن لإرادتي نصيب فيها، ولكن تلك الأكاذيب، إذا صح هذا التعبير، كانت تسبق تلك الإرادة بداعي ضرورة إسراعي في الرد فوراً. إن الذكرى العميقة البالغة ذكرى ماريون المسكينة، يُمكنها دائماً أن تُمسكني عن الأكاذيب التي قد تضر بأناس آخرين، ولكنها لا تمسكني عن تلك التي قد تخرجني من الارتباك إذا كان الأمر لا يعني أحداً سواي، على أن هذا أيضاً مضادّ لوجداني ومبادئي بما لا يقل عن الأكاذيب التي تؤثر في مصير الآخرين.

وأُشهد السماء على أنه لو كان يمكنني، بعد مرور لحظة، أن أعدل

عن الأكذوبة التي اعتذرت بها، وأن أقول الحق الذي كنت أحسه عبئاً عليّ، من دون أن تلطّخني وصمة بعدولي، لكنت أتممت ذلك من كل قلبي، ولكن الخجل الذي كان يمتلكني بأن اعترف هكذا بذنبي كان يمسك بي أيضاً، فيتتابني القوم على ذنبي، من دون أن أجرؤ على التكفير عنه، وإليك بمثل يشرح شرحاً أوفى ما أريد أن أقول ويبيّن أني لا أكذب لجرّ مغنم أو لحبّ ذات ولا لحسد أو خبث ودهاء، ولكني إنما أكذب بداعي الارتباك والخجل المرذول، مع يقيني، في بعض الأوقات، أن هذا الكذب يعرف أمره فلان من الناس وأنه لا يمكن أن يُجديني أبداً.

دعاني منذ زمن السيد فولكيه إلى أن أتناول أنا وامرأتي – خلافاً لما تعوّدت – الغداء معه في نزهة خلويّة، ودعا معي صديقه السيد بنوا إلى مطعم السيدة فاكاسان التي تناولت أيضاً هي وابنتاها طعام الغداء معنا. فبينما كنّا في منتصف الطعام، فاجأتني كبرى الابنتين، وكانت حاملاً، بأن سألتني، وهي تحدق إليّ: "أَلَكَ أولاد؟" فأجبت، وقد صبغ الحياء وجهي: "لا، لم يسعدني هذا التوفيق"، فابتسمت بخبث، وهي تجيل عينيها بين الحاضرين: ولم يكن هذا ليخفى على أحد حتى عليّ.

فمن الواضح أولاً أن هذا الجواب لم يكن بالذي كنت أريد أن أجيب به، ولو كان في نيتي أن أغش، لأنه، في الحالة النفسية التي كانت عليها السائلة، كنت مؤقناً بأن جوابي السلبيّ لن يغير شيئاً من اعتقادها بهذا الخصوص. إنها كانت تنتظر هذا الجواب السلبيّ بل كانت تستفزني للحصول عليه لتنعم بلذّة هي أن تراني أكذب. ولم أكن من الغباء بحيث لا أشعر بهذا، وبعد دقيقتين خطر لي الردّ الذي كان يجب أن أردّ به عليها

وهو: "هذا سؤال تعوزه الرّصانة لأنه صدر عن امرأة شابة إلى رجل شاخ وهو أعزب". ولو أجبت هكذا، لكنت – من دون أن أكذب وأن أحمر خجلاً – حملت الهازئين على الوقوف إلى جانبي ولألقيت على تلك المرأة درساً يجعلها أقل قِحَةً في طرح الأسئلة عليّ. ولكن لم أعمل شيئاً من هذا ولم أقل ما كان ينبغي قوله، بل قلت ما يجب ألّا يقال وما لم يجدِني. فمن المؤكد إذن أن ما أملى عليّ جوابي لم يكن رَويّتي ولا إرادتي، بل كان الجواب هو النتيجة الآلية لارتباكي. وقديماً لم يكن هذا الارتباك ليغشاني بل كنت أعترف بذنوبي في صراحة تتغلب على الخجل، لأني كنت لا أشكّ أن الناس يرون فيّ، في ما أُحِسُّه في باطنتي، شيئاً يكفِّر عن تلك الذنوب، ولكن عين الخبثُ تمزّق قلبي وتحبِط تدابيري، وإذ أنا قد أصبحت أكثر شقاء صرت أكثر استحياءً، ولم أكذب قطّ إلّا عن استحياء.

ولم يكن، يوماً، شعوري الطبيعي بكراهية الكذب أشدَّ منه يوم أخذت أكتب "اعترافاتي" لأن إغرائي به كان يقوى ويعاودني مرة بعد أخرى، وقد كنت استجبت لذلك الإغراء لولا أن نزعتي كانت تميل بي إلى الصدق. فلم أكتفِ بألّا أكتم شيئاً أو أخفي شيئاً مما يقع عبء وزره عليّ، بل إني، على عكس ذلك، كنت أشعر بما يحملني على الكذب وأنا أتّهم نفسي في شدّة من دون تؤدة بدل أن ألتمس لي الأعذار التماساً متسامحاً. وإنّ وجداني يؤكد لي أني سأُدان يوماً بأقل شدّة وصرامة مما دنت به نفسي. أجل إني أجاهر بهذا وأُحِسُّه ونفسي مرتقية إلى الأعلى؛ لقد أوصلت في هذا المؤلَّف حسن النيّة والصّدق والصّراحة إلى أبعد ما وصل إليه إنسان، بل إلى أبعد مما وصل إليه أبداً أي إنسان، ولقد أحسست بأن الخير يفوق الشر، فكان من مصلحتي أن أقول كلّ شيء، فقلته كلّه.

لم أقل قطّ أقلّ من ذلك، بل قلت في بعض الأوقات أكثر منه، ولكن وَفقاً للظروف، وهذا النوع من الكذب كان على الأرجح هذيان المخيلة أكثر مما كان فعل الإرادة، بل أراني مخطئاً بتسميته كذباً لأن جميع الإضافات التي جاءت لم تكن في الحقيقة كذباً. كنت أكتب اعترافاتي وقد بلغت من الكبر عتيّاً وأصبحت متقززاً من ملاذّ الحياة الباطلة التي كنت قد ذقت طعمها والتي كان قلبي قد أحس بفراغه منها كلّ الإحساس، وكنت أكتبها معتمداً على الذاكرة، وهذه الذاكرة كثيراً ما كانت تخونُني أو تمدّني بذكريات ناقصة، فكنت أسدّ الفراغ بتفاصيل كنت أتخيّلها زيادة على هذه الذكريات، ولكني لم أكتب ما يضادّها قط. وكنت أحب أن أتوسّع في وصف أويقات السعادة من حياتي، فكنت أزينها أحياناً بزخارف تمدُّني بها عواطف من حنان يثيرها الأسف. كنت أسرد الأمور التي نسيتها كما كان يجب أن تكون قد وقعت، لا بعكس ما كنت أذكره منها، وفي بعض الأحيان كنت أضفي على الحقيقة ثوباً من الطّلاوة ليس لها، ولكني لم أستبدل بها الكذب قط، لأخفّف من رذائلي أو لأدّعي بفضائل.

وإذا كنت في بعض الأحيان قد أخفيت، بحركة غير متعمّدة مني، الجانب البشع بتصويري لنفسي تصويراً جانبياً، فإن هذه الإخفاءات قد عُوّض عنها بإخفاءات أشد غرابة غالباً ما حملتني على طمس الخير بعناية أشدّ من طمسي الشّر، وهذه غرابة ملازمة لطبيعتي لا أؤاخذ الناس إذ هم لم يعتقدوها، ولكنها، مع غرابتها المتناهية، حقيقية. وكثيراً ما أفصحت عن الشر بجميع بشاعته إلا أني نادراً ما أفصحت عن الخير بما فيه من لطف وروعة، وكثيراً ما كتمتُه لأني في الإفصاح عنه تكريماً لي، وإني وأنا أكتب "اعترافاتي"، أبدو كأني أكيل المدائح لنفسي. ووصفت

سنيَ شبابي من دون أن أفاخر بالصِّفات النبيلة التي يزدان بها قلبي، حتى لقد أهملت الوقائع التي كانت تُظهِرها للعيان بشكل ملموس. وهنا ترجع بي الذكرى إلى واقعتين عادتا إلى ذهني وأنا أكتب هذا، وكنت قد ضربت عن ذكرهما صفحاً للسبب الذي قدّمتُه.

فقد كنت أذهب كل يوم أحد تقريباً لأمضي النهار في "باكيس" عند السيد "فازي" زوج إحدى عماتي الذي كان يملك مصنعاً لصقل النسيج. ففي ذات يوم كنت في المنشر، في غرفة الصّقل، ألهو بالنظر إلى ملاّسة الصقل الحديدية. وكان لمعانها يستوقف نظري، فدفعني عامل الإعجاب، فأخذت ألمس بأصابعي طرف النسيج الأملس المنشور على الأسطوانة، وإذا بالصّبيّ الصغير ابن فازي قد دخل في الدولاب وأداره بلباقة دورة صغيرة بحيث اشتبكت فيه إصبعاي الطويلتان من دون سائر أصابعي، ولكن هذا كان كافياً لهرسهما من طرفيهما، وظل الظفران عالقين بالملاّسة. فصرخت صرخة ألم حادة وأسرع فازي يبرم الدولاب في الحال ولكن الظفرين ظلتا حيث هما وأخذ الدم يتدفق من إصبعي بغزارة. وصعق فازي وعلا صراخه وخرج من الدولاب، وأقبل يعانقني ويستحلفني بأن أخفّض من صراخي، وإلا أحسّ الضياع. وعلى الرغم مما بي من ألم مبرّح فقد أثّر فيّ تألمه، فكتمت صراخي وذهبنا إلى المغسل حيث ساعدني على غسل أصبعيّ وتجفيف دمائي بالطحلب، والتمس منّي، والدموع تنهمر من عينيه، ألا أشكوه، فوعدته بذلك ووفيت بوعدي، حتى لقد مرت عشرون سنة من ذلك التاريخ من دون أن يدري إنسان بالحادث الذي سبب ظهور ندوب من جراح في إصبعيّ، لقد لزمت الفراش أكثر من ثلاثة أسابيع، وظللت أكثر من شهرين عاجزاً عن الاستعانة بيدي، مدّعياً بأن حجراً كبيراً قد سقط عليها فهرس إصبعيّ.

أيُّها الكذب العظيم الشّأن! متى تكون الحقيقة في غاية الجمال حتى يُستطاع تفضيلها عليك[5]؟

ولقد أثرت فيّ هذه الحادثة، مع ذلك، بسبب المناسبة التي رافقتها، إذ كان الوقت وقت التمرينات العسكرية التي دعيت الطبقة البورجوازية إلى القيام بمناوراتها. وكنّا صفاً واحداً، أنا وثلاثة صبيان في مثل سنّي قد وجب عليّ، إذ أرتدي البِزَّة، أن أتدرب وإياهم مع فرقة حيّنا. فآلمني أن أسمع الضرب بطبل الفرقة وقد مرت تحت نافذتي وفيها أترابي الثلاثة، على حين كنت في السرير.

والحادثة الثانية شبيهة بهذه كلّ الشّبه، ولكنها تعود إلى تاريخ أسبق.

فقد كنت ألعب في بلدة "بلان باليه" بلعبة الكرة التي تضرب المطرق، أنا وصديق لي يسمى بلينس. فوقع بيننا شجار في أثناء اللعب وتضاربنا، فوجه إليّ من مطرقة ضربة شديدة لو كانت خرجت من يد أقوى لأطارت دماغي.

فسقطت على الأرض في الحال، فاستولى على صديقي اضطراب

(5) بيت من الشعر مستشهد به مأخوذ من ملحمة "أورشليم المنقذة" لمؤلفها الشاعر تاس (II ,22) الذي كان روسو معجباً به إعجاباً كبيراً، ولاسيما في أيام شيخوخته، وقد استشهد به في روايته "هيلوويز". وقد ترجم تاريخ سوفروني الذي استخرج منه هذا البيت، ولكن هذا البيت لم يورده روسو في ترجمته. فأي شعور دعا إليه التقيّد بفن الجمال أو بعلم الأخلاق، فحمل روسو على إهمال هذا الشعر الذي استهواه واستوقف نظره لأنه يشيد بجمال أكذوبة سوفروني التي اتهمت نفسها كذباً كي تنقذ أولند.

شديد لم أرَ مثله في حياتي إذ بصر بدمائي تتفجر من رأسي بين شعري، فظن أنه قتلني، فارتمى علي وأخذ يعانقني ويضمني إلى صدره والدموع تنهمر من عينيه، وصراخه المؤلم يملأ الأجواء. فأخذت أنا أيضاً أعانقه وأبكي في انفعال غامض لا يخلو من عذوبة. ثم أخذ يجفف دمائي التي كانت لا تزال تتدفق، ولما رأى أن منديلي ومنديله المضرجين لا يكفيان لتجفيف الدماء، جرّني إلى منزل والدته التي كانت تملك بستاناً مجاوراً. فأوشكت هذه السّيّدة الطيّبة أن يغمى عليها لما وجدتني على تلك الحال. ولكنها تمالكت وضمّدت جرحي، بدأت فغسلته بالماء غسلاً كافياً ثم غطّته بطبقة من أزهار الزنبق المنقوع ببعض المشروبات الروحية، وهذا الضّماد مفيد جداً وهو كثير الاستعمال في بلادنا، ونفذ تأثير دموعها ودموع ابنها إلى سويداء قلبي وظللت زمناً طويلاً أعدُّها مثل والدة لي وأعدّ ابنها أخاً شقيقاً، ثم غابا عن عيني فنسيتهما بمرور الزمان.

وقد كتمت سرّ هذه الحادثة كتماً في سرّ الأخرى، وقد مرت لي مئات من الحوادث مثلها لم يخطر ببالي أن أدوّنها في "اعترافاتي" لأني لم أحاول قطّ أن أشيد فيها بالصّلاح الذي كنت أشعر بتملّكه على خُلُقيّ. لا، إني عندما أفصحت بما هو مخالف للحقيقة التي كنت أعرفها، لم يكن هذا إلّا عن أمور تافهة أو عن ارتباك في التعبير أو طلبا للتلذذ بالكتابة، لا لسبب آخر لي فيه منفعة، أو للناس فائدة به أو مضرة. وكل من يقرأ "اعترافاتي"، قراءة بعيدة عن المحاباة، إذ كان هذا يتمّ لإنسان ما، يشعر بأن ما أعترف به فيها هو أكثر مدعاة للألم والإذلال من شرّ هو أعظم، ولكنه أقلّ مدعاة إلى الخجل ويشعر بأني لم أنوّه بمثل هذا الشّر لأني لم اقترفه.

ينتج من هذه التعليلات وليدة التفكير أن المجاهرة بعقيدة الحقيقة التي اتخذتها لي ديدناً يقوم أساسها على مشاعر الاستقامة والنزاهة أكثر مما يقوم على حقيقة الأشياء وأني في واقع الأمر، قد اتبعت توجيهات وجداني الخُلُقيّة أكثر مما اتبعت المبادئ المجردة لمعرفة الحق والباطل. لقد لفّقت كثيراً من القصص ولكني لم أكذب إلّا نادراً جداً. وباتباعي لهذه المبادئ يسرت لأعدائي سبلاً كثيرة ينفذون منها للطعن عليّ، ولكني لم أوذ أحداً ولا نسبت إلى نفسي ميزة أكثر مما أستحق. ومن هذا الوجه تعدُّ الحقيقة فضيلة كما يخيل إليّ، وفي ما خلا هذا فهي لنا كائن فوق الطبيعة لا ينشأ عنه خير ولا شر.

ومع ذلك، لا أشعر بأن قلبي راضٍ كلّ الرضا من هذه الفوارق لكي أكون على كفاية اعتقاد أني في مأمن من اللوم والمؤاخذة، وإني، إذ عُنيت بوزن ما أنا مدين به لغيري، هل بحثت ملياً في ما كنت مديناً به لنفسي؟ وإذا كان من واجب المرء أن يكون عادلاً مع غيره، فيجب أن يكون صادقاً مع نفسه، وهذا تقدير واحترام يجب على الرجل المستقيم أن يؤديهما لكرامته. وعندما كان عقم حديثي يضطرني إلى أن أسد فراغه بتلفيقات يشفع بها حسن النية، فقد كنت مخطئاً، لأنه لا يصحُّ أن يُذِلَّ المرءُ نفسه ليُسلي غيره، وعندما كنت أضيف إلى أشياء حقيقية زخارف مبتدعة وقد دفعتني لذّة الكتابة، كان خطئي أعظم، لأن زخرفة الحقيقة، بأمثال وأقاصيص، تشويه لها من دون شكّ.

ولكن أكثر ما يبعدني عن التماس العذر لنفسي الشعار الذي اتخذته، فهو الذي كان يرغمني، أكثر من كلّ إنسان، على المجاهرة بالحقيقة في أضيق حد، فلم يكن كافياً أن أضحي لها، في كلّ موضع،

بمنافعي وميولي، بل كان يجب أن أضحي لها أيضاً بضعفي وطبعي الحيِيّ، كان يجب أن يكون لي من القوة والشجاعة ما يجعلني صادقاً دائماً، وفي كلّ مناسبة، بحيث لا يخرج أبداً تلفيق أو مثل قصصي من فمٍ ومن قلم "قد تكرّسا للحقيقة خاصة. هذا ما كان يجب أن أقوله لنفسي أبداً، وأنا أحمل هذا الشّعار الأبيّ، وأن أكرر تعاليمه، طوال الوقت الذي كنت أجرؤ فيه على حمله. لم يُملِ عليّ الرياء الكذب قط، فإن جميع أكاذيبي صدرت عن ضعف، ولكن، ها إني أُسيء الاعتذار. إنّ من كانت له نفس ضعيفة، فكلّ ما في وسعه عمله هو اتقاء الرّذيلة، وأما أن يجرؤ على المجاهرة بفضائل كبيرة فهذا ادعاء منه وجسارة.

هذه هي تأملات ما كانت، على الأرجح، لتخطر لي لو أن الأب روزيه لم يوحِ إليّ بها. لقد فات، ولا شك، أوان العمل بها، ولكن لم يفت على الأقل أوان إصلاح خطئي وردّ إرادتي إلى العمل بحسب الأصول. فهذا هو المطلوب مني منذ الآن، وبهذا إذن وبكلّ شيء يماثله، يكون مبدأ الحكيم سولون[6] قابلَ التطبيق على كلّ الأعمار، ولا يفوت أبداً وقت اكتساب المعرفة ولو من الإعداد، معرفة التخلق بالحكمة والصدق والتواضع والبعد عن الاعتداد بالنفس.

---

(6) أحد حكماء الإغريق السبعة (ولد سنة 640 ق.م.) نفخ روح الوطنية في أبناء أمته وخفف الأعباء عن مواطنيه الفقراء، ومهر بلاده بقانون أساسي ديمقراطي فاصبح اسمه مرادفاً لاسم حكيم ومشرع.

النزهة الخامسة

من جميع الأماكن التي أقمت فيها، ما من مكان جلب السعادة الحقيقة لنفسي وترك فيها أسف الحنين إلى العودة إليه، إلّا جزيرة "سان بيير" الواقعة وسط بحيرة "بيين". هذه الجزيرة الصغيرة، التي يسمونها في "نيوشاتل" جزيرة "لاموت" تكاد لا تكون معروفة إلّا قليلاً، حتى في سويسرا نفسها. فما من سائح، على ما أعلم، أتى على ذكرها، ومع ذلك فهي جذابة جداً، وموقعها الفريد يشيع السعادة في من يجب أن يعتكف، لأني قد أكون الرجل الوحيد في العالم الذي جعل منه مصيرُه رجلاً بعيد الشبه عن أمثاله، ولكني لا أظن أني الوحيد الذي يتمتع بميل خالص إلى الطبيعة، وإن كنت لم أجد بعد مثل هذا الذوق عند أحد من الناس.

وضفاف بحيرة "بيين" هي أكثر وحشية وروعة من ضفاف بحيرة جنيف لأن الصخور والغابات تحيط بالماء من قريب، ضاحكة كغابات جنيف، وإذا كانت زراعة الحقول والكروم أقل، وإذا كانت

المدن والبيوت أقل مما هي في جنيف، فإن فيها أكثر جداً من الخضرة الطبيعية والمروج، والملاجئ الظليلة، والغياض واختلاف المناظر والأراضي ذات الشجون والمنحدرات المتقاربة. ولم يكن على هذه الضفاف السعيدة طرق مريحة صالحة لسير العربات، لذلك كان عدد من يؤمها من السياح قليلاً، ولكن كم هي مغرية مثيرة لاهتمام المنفردين بأنفسهم الراغبين في التأمل ومناجاة الطبيعة، أولئك الذي يودُّون أن ينتشوا ما شاؤوا بسحر الطبيعة ومفاتنها وأن يستجمّوا ويخلوا لأنفسهم في صمت لا يُقلقه إلّا صراخ النسور وتغريد الطيور المتقطع وإلّا هدير السُّيول المتساقطة من الجبال. هذا الحوض الجميل، ذو الشكل المستدير، يضمُّ في وسطه جزيرتين صغيرتين، إحداهما مأهولة ومزروعة، ومساحتها الدائرية نحو من نصف فرسخ، وأما الأخرى فأقل كبراً وأرضها بور مقفرة، سوف ينتهي أمرها، يوماً، إلى الزوال، بسبب توالي نقل التراب منها لإصلاح التلف الذي تحدثه، في الجزيرة الأخرى، الأمواج والزوابع. وهكذا فإن قوت الضعيف يستخدم دائماً لمنفعة القوي.

وليس في هذه الجزيرة إلا بيت واحد ولكنه فسيح مريح يروق النظر، يملكه مستشفى مدينة "برن" كما يمتلك أيضاً الجزيرة. ويقيم في هذا المنزل جابي الضرائب وأسرته وخدمه، وهو يُعنى بتربية دواجن كثيرة العدد، ولديه أقفاص للطيور ومحابس ماء للسمك. والجزيرة، رغم صغرها، تبدو فيها مناظر مواقع من كلّ نوع كما أنها صالحة لزراعات مختلفة، فتجد فيها الحقول والكروم والغابات والغياض والمراعي الدسمة تظللها الأشجار وتنبت على حوافها شجيرات من كلّ فصيلة يحفظ لها نضارتها قربها من المياه، وهناك مصطبة عالية،

مغروسة بصفين من الشجر ترتفع على الضفاف حول الجزيرة، وفي وسط هذه المصطبة أقيم بهو يجتمع فيه سكان الشواطئ ويفدون إليه للرقص في أيام الآحاد التي تقع في أثناء قطاف الكروم.

فإلى هذه الجزيرة لجأت بعد أن رجمت بالحجارة في "مورتيه"[1]، فوجدت المقام فيها ممتعاً جداً، لقد كنت أمضي فيها أيامي وأعيش عيشة تلائم مزاجي، وإذ عقدت العزم على الإقامة بها طول حياتي، لم يكن ليداخلني من قلق إلّا أن أمنع من تحقيق هذه الرغبة التي كانت لا تتفق مع ما عقدت عليه النية من ترحيلي إلى إنجلترا، تلك النية التي كنت قد ابتدأت أستشفُّ نتائجها[2]. وفي حالة القلق الناتجة من شعور قلبي بوقوع حادث مستقبل، كنت أودّ أن يجعلوا من هذا الملجأ سجناً لي مؤبداً يُلقونني فيه مدى الحياة وأن ينتزعوا مني كلّ مقدرة على الخروج منه وكلّ أمل في النزوح عنه، وأن يمنعوا عني كلّ اتصال مع اليابسة. بحيث، إذ أصبحت هكذا جاهلاً لكلّ ما يحدث ويعمل في العالم، أنسى وجوده كما ينساني أيضاً سكانه[3].

---

(1) في ليل 6 إلى 7 أيلول/ سبتمبر سنة 1765 (انظر المراسلات العامة) (الجزء الرابع عشر صفحة 140). إن الحجارة التي ألقيت على منزل روسو في مورتيه سببت له من الخوف أكثر مما أنزلت به من الضرر، ولكنها كشفت له عن هياج خواطر من شأنها أن تجدد مخاوفه.

(2) منذ ربيع سنة 1765، وبعد المساعي التي قامت بها السيدة دو بوفلرس حاولت السيدة دو فيلدران أن تقنعه بالسفر، وبذلت جهدها لتسهيل سفر روسو إلى إنجلترا (انظر كتاب: **صديقنا روسو في إنجلترا**، صفحة 266-267).

(3) انظر في هذا المعنى **المراسلات العامة**، المجلد الرابع عشر من صفحة 206 إلى 208 المتضمنة كتاب روسو المدهش إلى حاكم نيدو السيد دوجرافنريد المؤرخ في 20 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1765. إن روسو، وقد أرغم على أن يبرح =

لم يتركوني أقيم بهذه الجزيرة إلّا شهرين[4]، ولكني لو خُيرِّت لأقمت فيها سنتين بل قرنين بل مدى الأبدية من دون أن أشكو من الضجر لحظة، ولو لم يكن من مجتمع آلف إليه أنا ورفيقتي إلّا جابي الضرائب وزوجته وخدمه الذين كانوا، في الحقيقة، في منتهى الطيبة ليس أكثر، ولكن في الواقع هذا ما كنت أحتاجه.

وإني أعد هذين الشهرين أسعد أيام حياتي حتى إني كنت أكتفي بهذه السعادة في الحياة الدنيا دون أن أسمح لنفسي أن تتولد فيها الرغبة في الانتقال إلى حال أخرى.

علام كانت تقوم هذه السعادة إذن، وفيم كانت تنحصر لذتها؟ إني أتحدى جميع رجال هذا العصر أن يحلوا هذا اللغز بأن يصغوا كيف كنت أعيش: إن البطالة المحببة كانت أولى ملذاتي ورأسها، تلك

= جزيرة سان بيير (كما أعلمه بذلك الحاكم، في تاريخ 16 تشرين الأول/ أكتوبر)، لم يطلب، لهول المفاجأة ولاضطرابه، أن يقضي بقية أيامه في تلك الجزيرة بل التمس "أن يمضي حياته سجيناً". في قصر من قصورهم أو في أي مكان آخر من ولاياتهم يختارونه ويطيب تعيينه لأصحاب السعادة أعضاء الحكومة. وكان السيد دو جرافنريد يبدي لروسو توقيراً خاصاً، لذلك كان يعتمد على أن يتوسط هذا الحاكم كي يمكن أن يكون هذا "المكان الآخر" جزيرة سان بيير، يوماً ما. على أنه ما كان يجهل أنه في نيدو، شمالي بحيرة بيين، قصر مهيب يعود بناؤه إلى عهد الإقطاع، إلى القرن الثاني عشر. وقد رضي بألّا يكون لديه قلم وورق وألّا يتصل بالخارج إلّا في الأحوال الضرورية وعن طريق المسؤولين عن مراقبته، ولم يطلب إلّا السماح له بأن يتنزه أحياناً في بستان ما. فأمثال هذه التفاصيل لا تظهر فقط إلى أي مدى قصيّ كان يصل الأمر بروسو، ولكنها تكشف أيضاً عن الصدق العميق الذي يتجلى في أقواله في نزهته الخامسة.

(4) من 12 أيلول/ سبتمبر على الأقل، إلى 25 تشرين الأول/ أكتوبر. ولكن روسو مكث في بيين إلى يوم 29 تشرين الأول/ أكتوبر صباحاً.

الملذات التي أردت أن أتذوقها بكلّ ما فيها من عذوبة، فجميع ما فعلته، طوال مدة إقامتي، كان في الواقع، العمل اللذيذ والضروري لرجل كرس نفسه للبطالة.

إن أملي بأن أفضل ما يرغبون فيه هو أن يدعوني وشأني في هذا المقام المنقطع عن الناس والذي احتبكت فيه بمحض إرادتي، والذي لم يكن في إمكاني أن أخرج منه من دون مساندة، ومن دون أن يُكشف أمري، والذي ما كان يمكنني فيه أن أتصل بأحد أو أن أراسل أحداً إلا بمعونة أولئك الذين يحيطون بي، - أقول إن هذا الأمل كان يُلَوِّح لي بأمل آخر: أن أنهي أيامي وأنا أكثر طمأنينة من قبل، ثمّ إن اعتقادي أن لدي متسعاً من الوقت كي أنظّم حياتي وأعمالي كان السّبب في أني لم أبدأ بعمل شيء. وإذ كنت قد نقلت، بغتة، مجرداً من كلّ متاع، إلى هذه الجزيرة، فقد أحضَرت إليها تباعاً مدبّرة منزلي وكتبي التي سرّني أني لم أخرجها من حقائبها، تاركاً هذه الحقائب والصناديق في الحالة التي وصلت فيها، ممضياً أيامي في المسكن، الذي كنت أنوي أن أنهي فيه أيامي، كما لو كنت نزيل فندق ملزماً بأن أبرحه في الغداة. وكان كلّ شيء على ما يرام في الحال التي كان عليها حتى إن محاولة ترتيب أي شيء كان يؤدي إلى الإخلال بالترتيب. وكانت إحدى ملذاتي الكبيرة أن أترك كتبي مسمّرة صناديقها، وألّا أعد منضدة للكتابة. وكنت إذا ما وردت علي، لسوء حظي، رسالة، استعرت، وأنا أتأفّف، منضدة جابي الضرائب ثم أسرعت في ردّها إليه، وأنا أعلل النّفس بألّا أعود إلى استعارتها[5].

(5) "المراسلات العامة" تبيّن أن روسو كتب رسائل أكثر مما كان يرغب فيه وأنه =

وبدلاً من تلك الأوراق الكئيبة وأكداس تلك الكتب، كنت أملأ غرفتي بالأزهار والأعشاب، لأني كنت وقتذاك في بدء ولعي بعلم النبات، ذلك الولع الذي أوحى إليّ به الدكتور يدفرنوا والذي لم يلبث أن أمسى هوى نفسي. وإذ أصبحت لا أريد أن أشغل نفسي بعمل جديّ، فقد كان لا بدّ لي من أن أشغلها بعمل مسلٍّ يروقني، شرط ألّا يجهدني إلّا بقدر ما يجهد نفسه كسول، فأخذت على نفسي أن أقوم بدراسة الأزهار المحلية وأن أصف جميع نباتات الجزيرة من دون أن أهمل واحدة منها، وأن أدقق في تفاصيل كافية لأن تشغلني في بقية أيامي. ويروى أن ألمانياً ألّف كتاباً عن قشرة ليمونة، وقد كان في استطاعتي أنا أن أكتب كتاباً عن كلّ نبتة نُجيل تنبت في المروج، وعن كلّ طحلب من طحالب الغاب، وكلّ بهق يكسو الصخور، وقصارى القول أني كنت لا أريد أن أترك هدباً من أهداب العشب ولا ذرة نباتية إلّا أتيت على وصفها وصفاً ضافياً، ونتيجة لهذا المشروع الجميل، كنت أذهب في كلّ صباح، بعد تناول طعام الفطور، حاملاً بيدي عدسة مكبرة ومتأبطاً كتاب علم النبات، كنت أجول، فأزور ناحية من نواحي الجزيرة التي قسمتها، في سبيل هذا الغرض، مربعات صغيرة، بقصد الجولان فيها، الواحدة بعد الأخرى، في كلّ فصل من فصول السنة.

وما من شيء أدعى إلى الدهشة مما كان يداخلني من البهجة والحماسة لدى كلّ ملاحظة كنت أدونها عن التكوين النباتي ونظامه، وعن

= كذلك كان يأسف في عزلته لحرمانه قراءة جريدة الجازيت ليكون على اطلاع على شؤون أوروبا ولو وصلته تلك المجلة متأخرة.

وظيفة الأجزاء التناسلية في الإخصاب، وقد كنت أجهل هذه الطريقة. وكان إدراك المميزات المخصبة، التي كنت أجهلها من قبل كلّ الجهل، يبعث البهجة في نفسي عند محاولتي إجراء التحقيق على الفصائل العادية، في انتظار العثور على أنواع أندر وجوداً. فإن نابض القرّاص وحشيشة الزجاج، وانفلاق ثمرة المجزاعة ومحفظة البقس، وغير ذلك من مسببات الإثمار والإخصاب وقد كنت ألاحظها لأول مرة، كلّ ذلك ملأ نفسي فرحاً وسروراً، وبعد ساعتين أو ثلاث عدت إلى المنزل وأنا أحمل مجموعة كبيرة من حصادي، مما يكفي لدراستي بعد الظهر، إذا أمطرت السماء[6]. وكنت أقضي بقية ساعات الصباح أتفقد مع الجابي وزوجته وتريز العمال وجناهم، وكثيراً ما كنت أشاركهم في العمل، وكم من مرة بصر بي سكان مدينة برن، وقد كانوا يفدون لزيارتي، معتلياً أشجاراً مرتفعة، حاملاً كيساً أملؤه من الثمار، حتى إذا امتلأ دلّيته بحبل إلى الأرض. وكانت الرياضة التي أقوم بها في الصباح تُحبب إليّ راحة تناول الغداء، ولكنها إذا تمادت في الطول، ودعاني جمال الصّحو إلى الخروج، خَفَفْت، والصحب لايزالون حول الخوان، إلى مركب كنت أقوده بنفسي في أيام الصحو، وارتميت فيه متمدداً، وعيناي مرتفعتان إلى السماء، وأخذت أهيم كما طاب للماء أن يوجهني. وكنت أحياناً، مدة ساعات طويلة، أغوص في مئات من هواجس مبهمة ولكنها عذبة، هواجس ما كان لها موضوع معين

(6) هذه التسلية التي كانت حينذاك هواً جديداً لروسو أصبحت في ما بعد من ملذات أجيال أخرى من نفوس مرهفة الحس، انظر في هذا المعنى إراسموس داروين، أحد المعجبين بروسو، في القصيدة التي يتغنى فيها بحب النبات، في مؤلفه جنة النبات.

ثابت. ولكنها، في عرفي، تفضُل مئة مرة، ما كنت أحسبه في ما مضى، أعذب لذّة مما يسمونه ملذات الحياة. وكم من مرة نبهني ميل الشمس إلى المغيب لوجوب العودة، وإذ وجدتني بعيداً كلّ البعد عن الجزيرة اضطررت إلى العمل بجميع قواي كي أصل قبل أن يمدّ الليل رواقه.

وكنت أحياناً، بدل أن أتجه إلى وسط البحيرة، أجد لذّة في أن أسير محاذياً ضفاف الجزيرة المخضرّة التي طالما حدَثْني مياهها الصّافية وظلالها الوارفة الندية على الاستحمام فيها، ولكن النُّزهة البحرية التي اعتدت أن أقوم بها أكثر من غيرها هي ارتيادي الجزيرة الصغيرة ونزولي إليها وتمضية ساعات العصر فيها أتنزه وحيداً بين شجيرات العجرم والعوسج الأسود والصعتر والحندقوق والزنجبيل وغيرها من الشجيرات المختلفة الأنواع. وأحياناً أخرى، كنت أجلس فوق كثيب من الرّمل مغطى بالعشب الأخضر وبالصعتر والبرسيم أو الحندقوق وبالأزهار المتنوعة مما يدل على أن هذه الأرض كانت تزرع في ما مضى، على الأرجح، وأنه من الممكن أن تربى فيها الأرانب فتتوالد وتتكاثر بسلام من دون خوف عليها ولا خشية ضرر منها. وقد أوحيت بهذه الفكرة إلى الجابي الذي استحضر من نيوشاتل أرانب ذكوراً وإناثاً حملناها إلى الجزيرة الصغيرة، بحفاوة عظيمة، أنا وتريز وزوجة الجابي وإحدى شقيقاتها. وهناك أنزلناها في الأماكن التي أُعدّت لها، وقد رأيتها قبل سفري تتناسل، ولا بدّ أنها اليوم قد تكاثرت، إذا كانت قد قويت على تحمل قرس برد الشتاء. وإنشاء هذه المستعمرة الأرنبية الصغيرة كان عيداً للجميع، فإن مرشد سفينة أبطال اليونان الذين يحملون في الأسطورة اسم أرخونوت لم يكن أعظم افتخاراً بنفسه مني وأنا أقود الصحب والأرانب من الجزيرة الكبيرة

إلى الصغيرة، ولاحظت بكبرياء أن زوجة الجابي التي كانت تخاف من الماء جدّ الخوف ويصيبها الدوار إذا هي ركبت مركباً، رافقتني واثقة ولم يغشَها خوف ما.

فإذا هاجت البحيرة ولم أستطع أن أقوم بنزهتي المائية، كنت أمضي ما بعد الظهر طائفاً في الجزيرة أجمع الأعشاب من هنا وهناك لاجئاً تارة إلى أكثر الخلوات ضحكاً وانفراداً، لأسترسل، ما طاب لي، إلى الأحلام، وطوراً مستلقياً على المرتفعات والكثبان لأجيل ناظرتي في ما تجتليه العيون من تلك البحيرة الرائعة الساحرة وضفافها التي تكلّلها، من ناحية، جبال قريبة والتي تنفرج من الناحية الأخرى عن سهول غنية خصيبة متسعة يمتد من ورائها البصر إلى جبال أبعد تكسوها الزرقة وتنتهي عندها حدود البحيرة.

واذا قرب المساء كنت أنزل من القمم وأذهب برضىً فأجلس على ضفة البحيرة فوق الرّمل في ملجأ خفيّ، وهناك كان قصف الأمواج وهياج الماء، إذ ينبّهان حواسي ويطردان من نفسي كلّ اضطراب غير هذا، يدفعان هذه النفس إلى الغوص في سلسلة من الهواجس العذبة فيطبق عليّ الليل وأنا مسترسل فيها من دون أن أتنبه إلى حلوله. ومدُّ هذا الماء وجزره وهزيزه المتواصل الذي كان يتضخم أحياناً، كان، إذا وقع في أذني ومرّ أمام عيني من دون انقطاع، - يقوم مقام الانتفاضات الباطنية التي كانت تسكنها هواجسي، وتكفي لأن تشعرني بوجودي، في لذة، من دون أن أكلّف نفسي عناء التفكير. ومن حين إلى حين كانت تتولد في ذهني بعض الاعتبارات الضعيفة القصيرة التي تدور على تقلبات أشياء هذا العالم وكانت تقلبات سطح المياه تظهر لي صورة

منها؛ لكن هذه الانطباعات الضئيلة لم تلبث أن اِمّحت باطّراد تلك الحركة المستديمة التي كانت تهزني وتُعللني وتستهويني، من دون أن تساند هواها نفسي، إلى حد أن لم أستطع أن أنتزع نفسي من ذلك المكان إلا بجهد، عندما آذنتني الساعة والنذير بالانصراف.

وبعد العشاء، وفي ليالي الصحو الجميلة، كنا نذهب جميعاً للتنزّه على التلّ كي نستنشق هواء البحيرة ونستمتع بالطّراوة، ثم نستريح في جناح المنزل ونسترسل في الحديث والضحك، أو نغني بعض الأغاني القديمة التي تفضل رطفات المعاصرين، وبعد ذلك نأوي إلى الفراش، ونحن راضون عن نهارنا مليئو الرغبة بأن نمضي مثله في الغداة.

وهكذا، بقطع النظر عن الزيارات[7] المُمِلّة التي كنت أفاجأ بها، كنت أمضي أيامي، مدة إقامتي في هذه الجزيرة، ولست أدري ما الذي بلغ حدّ الفتنة فيها حتى أثار في قلبي كوامن أسف حيّة عذبة دائمة بلغ من شدّتها أني ما حلمت بهذا المقام المحبوب، بعد خمس عشرة سنة من مفارقتي إياه، إلّا شعرت بأني محمول إليه على أجنحة الشوق.

لقد تبينت، في تعاقب الأيام وتقلبات عمر طويل، أن حقبات أعذب الملذات وأطيب أوقات التنعم ليست بتلك التي تجتذبني ذكراها وتؤثر فيّ إلى أقصى حد. فهذه الآونات القصيرة، آونات الجنون

(7) إن أهل جزيرة سان بيير يدلّون زائريها على باب المخبأ الذي كان يدلف إليه روسو فراراً من زائريه المزعجين. ومن المؤكد أن عزلته كانت أخفّ مما وصف لأنه أقام في الجزيرة في أثناء قطاف الكروم التي كان يفد الناس فيها إلى الجزيرة من بعيد، طلباً للسلوى وللرقص في أيام الآحاد، كما ذكر روسو ذلك في بدء كتابته لهواجسه.

والشهوة، مهما بلغ من حيويتها، وبسبب هذه الحيوية ليست إلّا نقطاً متناثرة جدّ التناثر في خط الحياة، وهي أندر وأسرع من أن تكون حالاً، والسعادة التي يأسف عليها قلبي لا تتكون من لحظات عابرة هاربة، إلّا أنها حال بسيطة دائمة ليست بذات حياة في نفسها ولكن دوام مدتها تزيد في روعتها، حتى تصل أخيراً إلى السعادة المثلى.

كلّ شيء هو في مدٍّ متواصل على الأرض، وليس فيها من شيء يحتفظ بشكل ثابت مقرر، ومودّاتنا التي تتعلق بالأشياء الخارجية، تمرّ وتتغير مثلها بحكم الضرورة، هي تسير دائماً أمامنا أو خلفنا، فتُذكّر بالماضي الذي فات أو توحي بالمستقبل الذي يجب ألّا يكون في أغلب الأوقات، فليس هناك من شيء متين يستطيع القلب أن يتعلق به، لذلك ليس على الأرض من لذّة إلا كانت زائلة، وأما السعادة التي تدوم فإني أشك في معرفة الناس إياها، ويكاد لا يكون، في ألذ ملذاتنا، لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا فيها: "أود لو تدوم هذه اللحظة إلى الأبد". وكيف يمكن أن تسمى سعادة حال عابرة هاربة تترك منا القلب قلقاً خالياً يثير فينا الأسف على شيء سابق، أو يحملنا على أن نشتهي شيئاً لاحقاً.

ولكن، إذا وجدت حال تجد النفس فيها مستقراً مكيناً جدّ المكانة لتستريح هناك بكليتها، وتستجمع كيانها كاملاً، دون ما حاجة إلى تذكّر الماضي والتطاول إلى المستقبل، حال ليس الوقت لديها بشيء، إذ يدوم فيها الحاضر أبداً من دون أن تقاس مدّته، ومن دون أثر لتعاقب الأيام، ومن دون شعور بحرمان ولا تمتع ولا سرور ولا ألم، ومن دون رغبة ولا خشية إلّا الشعور بوجودنا الذي يجب أن يملأ النّفس، كلّ

النّفس وحدها، إن حالاً كهذه يستطيع من وجد فيها أن يُسمّى سعيداً، ما دامت عليه هذه الحال، ولا تكون سعادته ناقصة وحقيرة ونسبيّة، كسعادة من انغمس في ملذّات الحياة، ولكنها تكون كافية وكاملة ومليئة، لا تترك في النفس فراغاً نشعر بوجوب سدِّه. تلك هي الحال التي كثيراً ما وجدت نفسي فيها، وأنا في جزيرة "سان بيير"، سواء أكنت غارقاً في هواجسي الشّاردة، أم كنت متمدداً في مركبي الذي كنت أتركه يسير كما يطيب للهواء تسييره، أم كنت جالساً على ضفاف البحيرة المائجة، أم في مكان آخر على ضفّة جدول جميل أو مَسيل ماء يهمس بخريره على الحصباء[8].

بماذا يتلذذ المرء في حال مماثلة لهذه؟ بلا شيء مما يكون خارج نفسه، بلا شيء سوى نفسه وسوى كينونته الخاصة، وما دامت هذه الحال، فإن الإنسان يكتفي بذاته كمثل الله. والشعور بالوجود، المجرد من كلّ مودة أخرى، هو بذاته شعور رضا وسلام ثمين، يكفي وحده لجعل هذا الوجود غالياً وعذباً لمن يعرف أن ينحي عنه جميع الانفعالات الشهوانية والأرضية التي لا تنقطع عن تحويل أنظارنا عن هذا الوجود وتعكير صفو عذوبته، ولكن معظم الناس الذين تستعر فيهم نار الشهوات المتواصلة لا يعرفون هذه الحال، وإذ لم يتذوقوا حلاوتها إلا وهي ناقصة ولمدة لحظات قليلة، فإنهم لم يحتفظوا منها إلا بفكرة غامضة ومبهمة لا تشعرهم بفتنتها. وليس بمستحسن مع ذلك، والأشياء هي الآن كما هي عليه، أن يدفعهم الحرص على هذه الانتقالات الروحية العذبة إلى التقزز من الحياة العاملة النشيطة التي

(8) هل لاحظ القارئ أنه لم يكن من جدول في جزيرة سان بيير؟

تفرضها عليهم حاجاتهم المتجددة المتنوعة. ولكن محروماً سيّء البخت فصلوه عن المجتمع الإنساني فأصبح لا يستطيع أن يعمل، على هذه الأرض، عملا مفيداً وصالحاً لغيره ولا لنفسه، يمكنه أن يجد في هذه الحال تعويضات عن جميع أنواع السعادة البشرية، تلك التعويضات التي لا يقوى القدر الغاشم ولا الناس على انتزاعها منه.

صحيح أن هذه التعويضات لا يمكن أن تشعر بها جميع الأنفس ولا في كلّ الأحوال، فلا بدّ أن يكون القلب في سكينة وألّا تثور شهوة تعكر هدوءه، ولا بدّ من استعدادات لدى من يشعر بها كما أن هذه الاستعدادات تجب في الأمور التي تحيط به. ويجب ألّا تكون هناك راحة مطلقة تامّة ولا اضطراب أكثر مما يلزم، بل حركة متناسقة من دون انتفاضات عنيفة وفترات متقطعة، والحياة بلا حركة ليست إلّا رقوداً عميقاً، وإذا كانت الحركة غير متساوية أو إذا كانت قوية أكثر مما يجب فإنها توقظ، وإذ هي تحملنا على استعادة ذكرى ما يحيط بنا من الأشياء، نذهب بفتنة الاسترسال مع الهواجس، وتنتزعنا من داخل باطنتنا لتعيدنا، في الحال، إلى الرّزوح تحت نيّر المال والناس، وتردنا إلى الشعور بويلاتنا. والسكوت المطلق مجلبة للحزن، فهو يمثّل صورة الموت. وعندئذ لا بدّ من معونة خيال ضاحك يعرض عفواً لمن جادت عليه بمثله السّماء. والحركة التي لا تبدر عند ذاك من الخارج تتولّد داخل الباطن. وصحيح أن السّكون أقل، ولكنه يكون ألطف وقعاً في النفس عندما تدور في الذهن فكرات لطيفة عذبة تطفو فوق هذه النفس وتلمسها لمساً خفيفاً من دون أن تنفذ إلى أعماقها فتحركها. ولا يلزم إلّا ما فيه الكفاية كي يذكر المرء نفسه بنسيانه جميع ويلاته. وهذا النوع من الهجس يمكن أن يتذوقه الإنسان حيث ينعم بالهدوء،

وقد فكرت مراراً أنه في إمكاني أن أسترسل إلى هواجسي في سجن "الباستيل" بل في قاع مظلمة حيث لا تقع عيني على شيء.

ولكن الاسترسال إلى هذه الهواجس كان، بلا شك، أفضل وأعذب في جزيرة خصبة منفردة حصرتها الطبيعة في حدود معينة، وانقطعت عن بقية العالم.

فما من شيء فيها إلّا كان يبسط أمامي صوراً ضاحكة ويجنّبني ذكريات محزنة، فالمجتمع الصغير المكون من سكانها أَلُوف لطيفَ، من دون أن يكون موجباً للاهتمام إلى حدّ أضطرّ معه إلى الالتفات إليه في أكثر الأوقات. وهناك كان يمكنني أن أمضي كلّ يوم، من دون مانع، إلى العناية بالأعمال التي تروقني أو إلى الارتخاء والبطالة. وكانت الفرصة مؤاتية بلا شك لمسترسل إلى هواجسه عرف أن يغذّي نفسه بأوهام مستحبة، وسط أكثر الأشياء بشاعة، فأمكنه أن يتملى من مناظر هذه الجزيرة، ما شاء، مستعيناً على ذلك بجميع ما كان يأخذ بحواسه. وإذ أفيق من سبات هواجس طويلة عذبة، وإذ أراني محُوطاً بالخضرة والزّهر والأطيار، وإذ أطلق السّراح لعيني لتجتلي من بعيد الضفاف الرائعة التي كانت تمتدّ محاذية متسعاً كبيراً من الماء الصافي المتبلور، كنت أقابل بين أوهامي وجميع هذه الأشياء، حتى إذا وجدتني قد عدت أخيراً إلى نفسي وإلى ما يحيط بي، لم أستطع أن أحدد الفرق بين الحقيقة والوهم، لأن جميع ذلك قد تعاون على تحبيب هذه الحياة إلي، حياة العزلة والاستجمام وهي التي كنت أمضيها في هذا المقام الجميل. كم ذا أتوق إلى تجدّد هذا الحياة! ولم لا تعود فتولد ثانية! أسفي ألّا أستطيع أن أعود إليها فأقطع فيها بقية أيامي، ولا أغادرها أبداً ولا

أرى فيها ساكناً من سكان القارّة يذكرني بضروب البلايا التي ما فتئوا ينزلونها بي منذ سنين عديدة؟ سيصبحون عما قريب منسيين إلى الأبد. ولكنهم لن ينسوني كما نسيتهم، وهذا سِيان عندي شرط ألّا يجدوا منفذاً ينفذون منه إلّي فيُقلقوا سكينتي، وإذا تحررت من جميع الأهواء الأرضية التي تولّدها ضوضاء الحياة الاجتماعية، فإن نفسي سترتفع، في أغلب الأحايين فوق هذه الأجواء، فتتعامل مقدماً مع الأرواح العلويّة التي ترجو أن تزيد في عددها بعد قليل من الوقت. وأنا أعلم أن النّاس سيجتنبون أن يردّوا إليّ ذلك المقام العذب الذي أبوا أن يتركوني فيه. ولكنهم لن يستطيعوا، على الأقل، أن يمنعوني من أن أطير إليه كلّ يوم على أجنحة الخيال، وأن أتذوّق فيه، لمدة ساعات، اللّذة نفسها التي كنت أتذوقها لو ظللت مقيماً فيه. وأعذب ما أنا فاعل أن أحلم به ما طابت لي الأحلام. أليس سواء عند حنيني إليه أو إقامتي فيه؟ بل أنا فاعل أكثر من هذا: إني أضيف، إلى جاذب هاجسٍ مجرّد يغشاني على وتيرة واحدة، صوراً فاتنة تكسِبه حياة، وموضوع هذه الصور كانت لا تستوعبه غالباً حواسي عندما كنت أنتقل بالرّوح، وأما الآن فكلّما كانت هواجسي عميقة زاد تصويرها لي بصور أكثر حيوية ووضوحاً، وغالباً ما أكون، وأنا في وسطها وبينها، أكثر شعوراً باللذة مني عندما كنت مقيماً حقيقة في تلك الجزيرة. وبلواي هي أنه كلّما فتر الخيال لا يتمّ لي ذلك إلّا بجهد وهو لا يدوم طويلاً. فواأسفاه أليس غشاوة عيني المرء تزداد عند اقتراب أجله؟

النزهة السادسة

ما من حركة لا إرادية تصدر عفواً منّا إلّا استطعنا أن نجد في قلوبنا سبباً لها، إذا نحن عرفنا حق المعرفة أن نبحث عنها في هذه القلوب. ففي يوم أمس، إذ كنت أجتاز بالشارع الجديد كي أذهب لجمع الأعشاب على طول مجرى نهر "البيفر" من جهة "جانتيلي" تحولت إلى اليمين، عند اقترابي من حاجز "أنفير"، ثم درت في البرية نحو طريف "فونتنبلو" فبلغت المرتفعات التي تحاذي هذا النهر الصغير. وكان هذا المسير هو بنفسه لا أهمية له، ولكن عندما تذكرت أني قد سلكت هذا المنعطف مراراً، أخذت أبحث في نفسي عن السّبب الذي دعا إلى هذه الذكرى، فلم أتمالك من الضّحك لما اهتديت إليه.

في بقعة صغيرة من الشارع، عند الخروج من حاجز "أنفير"، تستقرُّ كلّ يوم، في فصل الصّيف، امرأة تبيع الثّمار والخبز المعجون بالتوابل ومنقوع الأعشاب. ولهذه المرأة ابن لطيف ولكنه أعرج يسير على عكازين ويستجدي الإحسان من المارة، وقد ألفتُ رؤيته واعتاد

كلّما رآني أن يزجي إليّ المديح والثناء، وأن أجود أنا عليه بشيء من العطاء، وكنت في أول عهدي به تسرّني رؤيتُه وأُحسن إليه عن طيب خاطر، كما كنت أحياناً أطيب نفساً لسماع ثرثرته.

وهذا الرضا عنه لم يلبث أن أصبح، شيئاً فشيئاً، عادة صارت في ما بعد نوعاً من الواجب لم يلبث أن ضاق به صدري، ولاسيما أن هذه المقابلات كان يستهلّها الفتى بعبارات الإطراء من دون أن ينسى أن يناديني باسم "السيد روسو"، ليبرهن على معرفته بي الوثيقة، بينما كنت موقناً أنه يجهل من أنا، هو وأولئك الذين هدوه إلى اسمي، ولذلك أخذت أقلّل من مروري من هناك، واعتدت شيئاً فشيئاً أن أتحول عن هذا المكان وأن أسلك منعطفاً يوصلني إلى غاية سيري.

وهاك ما اكتشفته بعد الرّوية مما لم يكن قد دار في خلدي من قبل؛ لاحظت أن مسببات أكثر أفعالي ليست بواضحة لي كما كنت أتصور منذ زمن بعيد، أنا أعلم وأشعر أن عمل الخير هو أكبر سعادة يتاح لقلب الإنسان أن يذوقها، ولكن هذه السعادة قد أبعدت عن متناولي منذ زمن طويل، وأنه لا يمكن من كان مصيره في منتهى البؤس كمصيري أن يضع عمل خير مثمر في موضعه. إن أقصى غاية أولئك الذين وجهوا مصيري هي أن يثبتوا للملأ أن كلّ ما أعمله إنما هو مظاهر خداع ورياء، ولذلك كان كلّ داعٍ من دواعي الفضيلة يلوّحون به لي ليس إلا خدعة يلجؤون إليها ليُلقوا بي في الشَّرك الذي أعدّوه لي. أنا أعرف هذا، وأعرف منذ الآن أن العمل الوحيد الصالح الذي أستطيعه، بعد اليوم، هو امتناعي عن العمل، خشية أن أُسيء عملاً دون أن أريد، ومن دون أن أعرف.

ولكن، لقد مرّت بي أيام أسعد، كنت فيها، تبعاً لنوابض قلبي، أستطيع، في بعض الأحيان، أن أدخل الفرح إلى قلب آخر، وأن أشهد على نفسي، وشهادتي حقّ أنّي، كلّما استطعت أن أتذوق هذه السعادة، وجدتها أحلى من كلّ سعادة. وكان هذا الميل حادّاً نقياً حقيقياً، وما من شيء في خفايا سريرتي أنكره عليّ. على أنّي شعرت، في أكثر الأوقات، بثقل عبء حسناتي الشخصية بسبب سلسلة الواجبات التي كانت هذه الحسنات تجرّها وراءها؛ وعندئذٍ توارت اللذة، وأصبحت لا أجد في متابعة مثل هذه الفعال التي كانت تجتذبني إلّا إزعاجاً لا يطاق. وفي أيام رخائي القصيرة كان كثير من الناس يلجؤون إليّ، وما من أحد رددته خائباً في أمر كان في استطاعتي قضاؤه. ولكن من هذه الحسنات الأولى التي بذلتها بسخاء وطيب خاطر، قد أنشأت سلاسل متتابعة من تعهدات لم أكن أتوقعها، ولا كان في مقدوري بعد ذلك أن أخلع عنّي نيرها، فإن خدماتي الأولى لم تكن في عرف من استفادوا منها إلّا منفذاً لتلك التي كان يجب أن تتبعها، ومنذ الساعة التي فيها يصل خبري إلى بائس محروم، كان هذا الإحسان الأول الذي مددت به يدي حدّاً راضياً يمسي حقاً لا حدود له يشمل جميع ما قد يترتب عليه في المستقبل، من دون أن تكون لي وسيلة ما لكي أتخلّص منه، ولو أثبتُّ عجزي. وهكذا فإن لذّات عذبة على قلبي كانت تستحيل ضروبَ استعبادٍ مُكلفة باهظة.

ومع ذلك فإن هذه السّلاسل لم تبدُ شديدة الثِّقل ما دام الجمهور يجهلها، وما دمت أعيش في الظّلام. ولكن عندما انتشر اسمي وذاع بين الناس بفضل مؤلفاتي، وهذه بلا شكّ غلطة لا تغتفر، ولكني كفّرت عنها كلّ التّكفير بما نزل بي من ويلات، - قلت عندما ذاع اسمي

أصبحت مكتباً عاماً يَؤمُّه جميع المعذبين على الأرض أو من يدَّعون بأنهم كذلك ويَؤمُّه جميع الأفَّاقين الذين كانوا يبحثون عمّن يمكن خَدْعهم، ويَؤمُّه جميع الذين كانوا يرمون إلى التسلُّط عليَّ بدعوى إعجابهم بي. عند ذاك أتيح لي أن أتبيّن أن جميع ميول الطبيعة، من دون أن أستثني الإحسان نفسه، المكنونة أو المتّبعة في المجتمع من دون فطنة ولا اختيار، تُبدِّل طبيعتها وتصبح في أكثر الأحايين مُضرَّة بقدر ما كانت نافعة في أول اتجاه لها. فهذه الاختبارات القاسية الكثيرة غيرت، شيئاً فشيئاً، استعداداتي الأولى، بل إنها حصرتها في نطاق حدودها الحقيقية. أجل لقد علّمتني أن أتبع داعي ميلي إلى الإحسان وأنا أقلّ عمَهاً، وذلك عندما لا يفيد هذا الميل إلّا أن يُعزز خبث الآخرين.

ولكني لم أندم قطّ على هذه الاختبارات لأنّها أمدّتني، والفضل للرويّة، بأضواء جديدة أعانتني على معرفة نفسي وأوضحت لي أسباب سلوكي في مئات من الظروف كنت فيها أتعلق بالأوهام. فرأيت أنه، توصلاً لإحسان العمل بلذة، يجب أن أسلك بحريّة من دون إكراه، وأنه، كي تنتزع مني حلاوة عمل صالح، يكفي أن يصبح هذا العمل واجباً مفروضاً علي، ومن ثمَّ فإنّ ثقل الإلزام يكون على عاتقي عبئاً يعكّر أعذب الملذّات. وأحسب أنّني، على ما ذكرت في كتاب إميل[1]، كنت، عند الأتراك، زوجاً عاجزاً ساعة يدعوه الناس إلى القيام بالواجبات الزوجية.

هذا ما يغيّر الرأي الذي كنت أراه في فضيلتي مدّة زمن طويل،

(1) هذا القول ذكره روسو في الاعترافات (الفصل الخامس)، لا في كتاب إميل (المترجم).

لأنه لا فضيلة في أن يطيع المرء هواه وأن يسلّمه قياده عندما يكون مدفوعاً إلى هذا الميل باللّذّة التي يلقاها بأن يحسن عملاً، ولكن الفضيلة تقوم على أن يقهر المرء ميوله إذا اقتضى الواجب، كي يعمل ما يمليه هذا عليه. وذلك ما كانت معرفتي له أقلّ من معرفة رجل من رجال المجتمع. لقد ولدت مرهف الإحساس، ذا طيبة، أحمل بين جنبيّ رأفة تبلغ حدّ الضعف، متحمساً في نفسي لكلّ ما ينبع من الكرم، لذلك رأيتُني إنسانياً، محسناً سريع النجدة لمن دعاني، مدفوعاً بعامل الذوق وبهوى النفس أيضاً ما دام الأمر منُوطاً بقلبي وحده، وقد كان ممكناً أن أكون أفضل الرجال وأكثرهم حلماً لو كنت أعظمهم قدرة، وقد كان يكفيني، لإطفاء نار الانتقام في نفسي، أن أكون قادراً على الانتقام، وقد كان في وسعي أن أكون أيضاً عادلاً في ما فيه الضرّ بمصلحتي، ولكن لا بمصلحة من هم أعزّاء عندي. وكلّما وقع التناقض بين قلبي وواجبي ندر أن تكون الغلبة لقلبي، إلا إذا كان الأمر لا يدعو إلّا إلى الامتناع، فعند ذاك كنت أجدني قوياً في أغلب الأحايين، ولكن مغالبتي لميلي كانت دائماً متعذّرة عليّ، وسواء أكان آمري الناس أم الواجب أم الضروريّ فإن قلبي إذا لزم الصّمت، أبت إرادتي أن تسمع وتستجيب، وأرى الشر مقبلاً فأتركه يصل إليّ بدل أن أجهد نفسي في تلافيه. وأبدأ أحياناً عملي بمجهود، ولكن هذا المجهود يتعبني وينهكني فلا أستطيع تكملة العمل. وكلّ ما أتخيّله من دون شغف به، لا ألبث أن يتعذّر عليّ عمله.

وهناك ما هو أغرب، إن الإكراه المؤاتي لرغبتي يكفي لملاشاة هذه الرغبة، ولتحويلها إلى تقزُّزٍ بل إلى كراهية، إذا اشتدَّ الإكراه، وهذا ما يشقُّ عليَّ معه العمل الصالح الذي يُفرض عليّ فرضاً والذي كنت

أعمله عن طيب خاطر يوم لم يكن مفروضاً. إن الإحسان الذي أوليه مجاناً هو بلا شكّ عمل أحب القيام به، ولكن عندما يعتبر من أحسنت إليه هذا الإحسان سنداً واجب الأداء به يطالبني بمداومة العطاء، خشية جرّ بغضائه، وعندما يفرض علي، كما يفرض القانون، أن أظل إلى الأبد محسناً إليه لأني وجدت لذّة بإغاثته في المرة الأولى، عند ذاك يضيق صدري وتتبخّر اللذة. وما أفعله حينئذ، إذا استسلمت، يعدّ ضعفاً وحياء مكروهاً، ولكن حسن الإرادة يكون قد زال، وبدلاً من أن أحسّ بالرّضا عن نفسي، أوجّه إليها تأنيباً وجدانيّاً على عمل صالح عملته على كره منيّ.

أنا أعلم أن هناك شبه عقد بل عقداً هو من أقدس العقود بين المحسن والمحسن إليه تعقد بموجبه شركة بينهما في حدود هي أضيق من تلك التي تربط بين النّاس عادة، وإذا كان المدين يتعهّد ضمناً بحفظ الجميل، فإن المحسن يتعهّد، في دوره، بأن يديم عطفه على الآخر، ما دام أهلاً لإحسانه، وأن يجدد أعمال البرّ كلّما أمكنه ذلك، وكلّما طولب بعمل منها. ليست هذه بشروط صريحة ولكنها نتائج طبيعية للرابطة التي قامت بينهما. ومن رفض، لأول مرة، خدمة مجانية قد طولب بها، لا يخوّل الطالب حقّ أن يشكو من رفضه، ولكن من يرفض للشّخص نفسه، في حالة مماثلة، قضاء أمر هو الأمر نفسه الذي سبق أن قضاه له، يخيب أملاً أجاز للطالب أن يعقده عليه، فهو يخدع ويضيع أملاً ولّده.

وفي هذا الرّفض إشعار بوقوع ما لا أستطيع إيضاحه من ظلم وقسوة هما أمرّ من الرّفض في الحالة الأولى، على أنّه مع ذلك نتيجة استقلال في الإرادة محبّبة إلى القلب الذي يأبى التنازل عنه من دون

جهد. إذا وفيت ديناً فقد أديت واجباً، وإذا بذلت عطاء فقد جلبت لنفسي لذّة. فإن اللذة التي يجدها المرء في قضاء واجباته هي من تلك اللذات التي تولّدها ممارسة الفضيلة وحدها، وأما تلك اللذات التي تجيئنا من الطبيعة رأساً فهي لا ترتفع إلى هذا المقدار من السّموّ.

وبعد اختبارات طويلة محزنة، تعلمت أن أتوقع من بعيد نتائج أول أهوائي التي أطعتها فأمسكت نفسي، في كثير من الأحايين، عن عمل برّ كنت أودّ عمله وكنت أستطيع عمله، وذلك لخشيتي من الاستعباد الذي أخضع له نفسي في ما بعد، إذا قمت بهذا العمل من دون تروٍّ. ولم يكن شعوري بهذا الخوف دائماً، بل إني كنت، على العكس مشغوفاً، في شبابي، بأعمال البرّ التي كنت أعملها، وقد دلّتني الخبرة مراراً على أن من كنت أحسن إليهم يحملون لي ودّاً بدواعي عرفانهم للجميل أكثر من دواعي مصلحتهم. ولكن الأشياء قد تبدلت كما حالت الأحوال حالما بدأت مصائبي، فعشت عندئذٍ في جيل جديد لا يشبه أبداً الجيل الأول، وطرأت على عواطفي تغييرات لمستها في عواطفهم. وأولئك الناس أنفسهم الذين رأيتهم تباعاً في هذين الجيلين الظاهري الاختلاف، اقتبسوا أخلاق الجيلين. وبعد أن كانوا صادقين صرحاء، ثم أصبحوا على ما هم عليه، إذ نهجوا سبل الآخرين، وكما أن الأوقات قد تبدلت فكذلك تبدل الناس. وكيف أستطيع أن أحتفظ بالعواطف أنفسها لمن أجدهم على عكس ما خلقوا، أنا لا أكرههم أبداً، لأني لا أعرف ما البغضاء، ولكني لا أستطيع الإمساك عن احتقارهم احتقاراً يستحقونه، كما لا يسعني إلّا المجاهرة بهذا الاحتقار.

وقد أكون، أنا نفسي، تغيرت أكثر مما ينبغي، من دون أن أتنبّه لهذا

التغيير. وأيُّ طبيعة تثبت، من دون أن تتغير، أمام حال كحالي، وإذا كانت تجارب عشرين سنة قد أقنعتني بأن جميع ما وهبته الطبيعة لقلبي من استعدادات صالحة قد قلبها مصيري وأولئك الذين يتحلّون بهذا المصير، بقصد الضرّ بي أو بغيري، وإذا كانت هذه التجارب قد أقنعتني بجميع هذا، أمسيت لا أستطيع أن أنظر إلى عمل برّ يهيئون لي عمله إلّا كنظري إلى شرك ينصبونه لي يخفي تحته شرّاً ما. أنا أعرف أنّه أيّاً كانت نتيجة هذا العمل، فإن لي فضل حسن النية. أجل إن هذا الفضل مرتبط بالعمل ارتباطاً دائماً لا شكّ فيه. ولكن البهجة الداخلية قد زالت.

وعندما يعوزني هذا الدافع أصبح لا أحسُّ في باطني إلا برداً ولا مبالاة، وإذ أنا موقن بأني لا أعمل إلا عمل غشٍّ وخداع، بدلاً من عمل نافع، فإن الاستهجان الصادر عن احترام الذات وإنكار العقل لا يوحيان إليّ إلّا بالاشمئزاز والامتناع، في الحالات التي كنت أراني فيها مليئاً بالحماسة والغيرة، لو كنت في حالي الطبيعية.

هنالك أنواع من البلايا تسمو بالنّفس وتقوّيها كما أن هناك ضروباً أخرى تحطّمها وتقضي عليها، ومن هذا النّوع المصائب التي أصبحت فريسة لها. ولو مزج قليل من الخمير في مصيبتي لزاد في اختمارها إلى أقصى حد ولأصبحت هائجاً ثائراً، ولكنها لم تجعلني إلا صفراً. وإذ أمسيت عاجزاً عن أن أحسن عملاً يفيدني أو يفيد غيري، فقد امتنعت عن أن أعمل، وهذه الحال ليست بحال براءة إلّا لأنها تجعلني أجد نوعاً من العذوبة أن أستسلم، بلا لوم، إلى سجيّتي. إني تجاوزت الحدّ بلا شك، لأنيّ أجتنب الفرص المؤاتية للعمل، حتى في الحالات التي لا يكون فيها العمل إلّا صالحاً، ولكنّي، ليقيني أنهم لا

يتركوني أنظر إلى الأشياء كما هي، أمتنع عن الحكم على الظاهر الذي يموّهونها به، وعلى ضروب المخادعة التي يخفون وراءها الأسباب الدّافعة للعمل، ويكفي أن تترك هذه الأسباب في متناولي لأكون على يقين أنّها خداعة.

ويبدو أن مصيري قد نصب لي، منذ نعومة أظفاري، الشّرك الأول الذي تركني، مدّة طويلة، سهّل الوقوع في جميع الأشراك الأخرى. لقد خلقت أكثر الناس ثقة بالناس، وفي مدة أربعين سنة من عمري لم يخن هذه الثقة خائن، وإذا بي قد وقعت على طبقة أخرى من الناس والأشياء فسقطت في فخاخ كثيرة من دون أن ألمح واحداً منها، ولم تكد تكفي عشرون سنة من التجارب لأن تبصّرني بمصيري. ولما اقتنعت بأن التّظاهرات المضحكة التي يتظاهرون بها أمامي ليس فيها إلّا كذب ورياء تحولت مسرعاً إلى أقصى الطرف الآخر: ذلك أن المرء إذا خرج مرة عن سجيّته فما من حدود توقفه. ومن ثمّ تقزّزت من الناس وامتلأت نفسي كراهية لهم، وإذ تساندت إرادتي وإرادتهم في هذا الأمر، فقد أوقفتني منهم عند حدّ أبعد مما ترمي إليه دسائسهم.

فليفعلوا ما طاب لهم: إنّ تقزّزي منهم لن يبلغ حدّ البغضاء. وإذا فكرت في ارتباطهم بي وقد ارتضوه لأنفسهم كي يجعلوني أرتبط بهم، أخذتني الشفقة عليهم. وإذا كنت أنا شقياً فهم أيضاً أشقياء، وكلّما عدت إلى نفسي وجدتهم دائماً مدعاة للرأفة. وقد يكون للكبرياء يد في صدور هذه الأحكام، إني أشعر بأني أرفع منهم جداً فلا أنحطّ فأُكنّ لهم بغضاً، وقد يثير اهتمامي بهم احتقاري إيّاهم، لا بغضاؤهم؛

وأخيراً أنا أحبّ نفسي حباً جمّاً لا أستطيع معه أن أبغض أياً كان، لأن في البغض تضييقاً وكبتاً لوجودي وأنا أفضّل أن أبسط هذا الوجود فوق العالم جميعه.

وأفضّل أن أفرّ منهم على أن أبغضهم. إن مرآهم يؤثر في حواسي فتثير في قلبي انفعالات تزيدني حرقتها آلاف من نظرات قاسية، ولكن الامتعاض يزول بزوال السبب الذي أثاره. أنا أكترث لهم مرغماً إذا كانوا حاضرين، ولكن ذكراهم لا تدعوني أبداً إلى مثل هذا الاكتراث. فإذا غابوا عن عيني أصبحوا كأن لم يكن لهم قطّ من وجود.

إن أمرهم لا يعنيني في شيء إلّا إذا كان متعلقاً بي، لأنهم في علاقات بعضهم ببعض، يمكن أن آبه لهم ويمكنهم أن يحدثوا أثراً في نفسي، ولكن كأشخاص رواية تمثيلية أشهدها. يجب أن يتلاشى وجودي الأخلاقي الأدبي كي تصبح العدالة لا تعنيني في شيء. إن مرأى الظلم والشّر يشعل نار غضبي فيغلي الدم في عروقي، كما أن أفعال الفضيلة التي لا أرى فيها تبجّحاً ولا تظاهراً ترقصني طرباً، وتستدرّ أيضاً من عيني دموعاً عذبة. ولكن لا بدّ لي، قبل ذلك، أن أرى هذه الأفعال بنفسي وأن أقدّرها قدرها، لأنني إذا وضعت نصب عيني تاريخ حياتي، يجب أن أكون غبياً حتى أتبنّى، في أيّ شيء كان، رأي الناس، وحتى أصدّق قولاً يقال، اعتماداً على ما يعتقده غيري.

لو كانت سحنتي وملامح وجهي يجهلها النّاس جهلهم لطبعي وسجيّتي، لأمكنني العيش بينهم، بلا مشقّة، بل إن مجتمعهم كان يمكن أن يظل محبباً إليّ ما بقيت غريباً عنهم، وإذ أنا مستسلم من دون إكراه إلى ميولي الطبيعية، كنت أديم لهم المودة، شرط ألّا يبالوا بي. كنت

إذن أوليهم عطفاً شاملاً، لا يرمي البتّة إلى تحقيق مأرب في النفس: ولكن من دون أن أرتبط بأي مودّة فرديّة، ومن دون أن أحمل نيّر أيّ واجب كان، بل أقوم لهم، حرّاً مختاراً بجميع ما يشقّ عليهم عمله مما يحملهم عليه حبّهم لذواتهم وتضطرهم إليه شرائعهم.

ولو كنت بقيت حراً، أليف ليل، منفرداً بنفسي، كما خلقت لأن أكون، ما عملت إلّا خيراً، لأنه ليست في قلبي أقلّ جرثومة لأيّ هوى مضرّ، ولو كنت غير منظور، وكلّي القدرة كمثل الله، لكنت محسناً مثله ولكنت صالحاً مثله. فالقدرة والحرية هما اللتان تصنعان صفوة الرّجال الممتازين. وأما الضّعف والاستعباد فلم يصنعا قطّ إلّا أشراراً. ولو كنت مالكاً لخاتم جيجس[2] لانتزعني من تبعيّتي للناس ولجعلهم أتباعاً لي. ولكم سألت نفسي، وأنا غائص في بُحران من الأماني، في أيّ الأغراض كنت ألجأ إلى الخاتم، لأن في مثل هذا السؤال ما يزين للمرء الاستبداد الموازي للسلطة. وإذا أنا أصبحت قادراً على تحقيق متمنياتي، قادراً على كلّ شيء، وفي حذر من أن يخدعني الناس، فما الذي كنت أشتهيه ومعي بعض الأتباع؟ كنت أشتهي وأبتغي شيئاً واحداً: أن أرى جميع القلوب فرحة راضية. إن مرأى سعادة الناس جميعاً كان يمكنه وحده أن يملأ نفسي بشعور دائم وشدّة رغبتي أن أشارك في إسعاد الناس كانت تكون هواي الثابت الدائم. والتزامي جانب العدل بلا محاباة، والطّيبة بلا ضعف، كان يقيني ضروب سوء الظنّ الأعمى والضغينة التي لا يبرد غليلها، وذلك لأني، إذ أنظر إلى الناس

(2) راعٍ من رعاة ليديا تزعم الأسطورة أنه كان يملك خاتماً يوليه القدرة على الاختفاء عن العيان. لزم بلاط الملك جاندول في القرن السابع قبل المسيح، ثم قتله واعتلى العرش مكانه (المترجم).

كما يجب أن ينظر إليهم، وإذ أقرأ بسهولة أعمق صفحات قلوبهم، لا أجد في ذوي المودة إلّا قليلاً يستحقون جميع عواطف قلبي، ولا أجد في الممقوتين جدّ المقت إلّا قليلًا يستحقون بغضائي، أولئك الذين كانت رداءتهم هي نفسها قد دعتني إلى الشّفقة عليهم ليقيني أنهم ينزلون الأذية بأنفسهم بينما هم يرمون إلى إنزالها بغيرهم. ولربما عنَّ لي في ساعات لهو صبياني أن أجيء أحياناً ببعض الأعاجيب؛ فبينما أراني لا أولي اهتماماً بما يعود عليّ بالفائدة، ولا أعمل إلا بما اشترعته ميولي الطبيعية، كنت إذا قمت بعمل واحد صارم، مدفوعاً بعامل العدل، أقوم، إزاء ذلك، بألف عمل من أعمال الحلم والنزاهة. ولو كنت وزير العناية الإلهية ومنفذ شرائعها بحسب السّلطة المعطاة لي، لكنت جئت بأعاجيب أبلغ حكمة وأكثر نفعاً مما روي في أسطورة القديس ميدار المذهبة ومما أشيع عن قبره[3].

وليس هناك إلّا نقطة واحدة تستيطع فيها قوة تغلّلي إلى كلّ مكان، وأنا غير منظور، أن تزيّن لي الإقبال على ضلالات لا أقوى على صدّها، حتى إذا سلكت سبيلها مرة، لم أدرِ إلى أيّ مهواة تقودني. وإنّي أعدّ نفسي جاهلاً لها وللطبيعة لو مُنيت نفسي بأن هذه التسهيلات لا تقوى على التغرير بي أو أن العقل يوقفني عند هذا المنحدر، أجل لقد كنت موقناً بنفسي في كلّ أمر غير هذا، ولكني كنت لا شكّ هالكاً في ما يتعلّق بهذا الأمر وحده. ومن كانت قدرته تضعه فوق الإنسان وجب

---

(3) يشير بهذا إلى قبر الشّماس باريس الكائن في مقبرة "سان ميدار". فمن المعلوم أنه في حوالي سنة 1730 حدثت هناك عجائب شفاء لمرضى كثيرين كانت كلها تقريباً تقع بعد نوبات عصبية. ومن ثم أطلق اسم ذوي النوبات العصبية على المتعصبين لإيمانهم وهم الذين كانوا يؤمون تلك المقبرة.

عليه أن يكون فوق مواضع ضعف الإنسانية، وإلّا فإن هذا الإفراط في قدرته يضعه في الواقع تحت الآخرين وتحت ما كان يكون لو أنه بقي مساوياً للناس.

وإذا أنا قلّبت الأمر على جميع وجوهه أعتقد أنّه خير لي أن ألقي بالخاتم السّحري قبل أن يحملني على ارتكاب حماقة ما. وإذا ظلّ الناس مصرّين على النّظر إليّ على غير ما أنا عليه، وإذا كان مرآي يثير لواعج ظلمهم، فكي أنتزع منهم رؤيتي يجب الفرار منهم لا الاختفاء بينهم، والواجب عليهم أن يتواروا أمامي، وأن يخفوا عني دسائسهم، وأن يهربوا من وضح النهار، وأن يغوصوا في الأرض كما يغوص الخلد في جحره. وأمّا أن يروني كما أنا فذلك خير لي إذا أمكنهم ذلك، ولكن هذا متعذّر عليهم، لأنهم لن يروا أبداً في موضعي إلا جان جاك الذي كوّنوه، والذي عملوه كما شاء قلبهم أن يكون ليبغضوه بالقدر الذي يريدون. فأنا إذن على ضلال إذا تأثّرت بالشّكل الذي ينظرون به إليّ؛ ويجب عليّ أن لا أولي اهتماماً لهذه النظرات، لأن الرجل الذي ينظرون إليه هكذا ليس إياي.

والنتيجة التي يمكن أن أستخلصها من جميع هذه الاعتبارات هي أني لم أكن قط قابلاً للاندماج في المجتمع المدني، حيث تجد كلّ شيء إزعاجاً وارتباكاً والتزاماً وواجباً ولأن طبعي المستقل جعلني دائماً غير قابل لإرغام النّفس على اتباع ما تواضع الناس عليه، وما لا بدّ منه لمن أراد أن يعيش معهم. وما دمت أعمل حرّاً فأنا طيّب ولا أعمل إلا خيراً، ولكن لا أكاد أشعر بوطأة النير، سواء أكانت من العَوَز أم من الناس، حتى أصبح ثائراً بل جامحاً، وحتى أراني لست شيئاً. وإذا

اضطررت إلى عمل عكس ما تقضي به إرادتي، أمتنع عن العمل أيّاً كانت عُقبى هذا الامتناع، بل إني لا أعمل بوحي إرادتي نفسها، لأني ضعيف. فأمتنع عن العمل لأن كلّ ضعفي منصب على العمل، وكلّ قوّتي هي في الامتناع، وجميع خطاياي هي من الإهمال، وندر جداً أن تكون من الفعل.

ولم أعتقد قط أن حرية المرء تقوم على أن يعمل ما يريد، ولكنها تقوم على ألّا يعمل أبداً ما لا يريده، وهذه هي الحرية التي طالما طالبت بها، وكثيراً ما حرصت عليها وبها كنت موضع فضيحة عند معاصريّ، لأنهم، إذ كانوا ذوي نشاط وطموح وحركة، كانوا يمقتون الحرية عند غيرهم، ولأنهم؛ إذ لا يريدونها لأنفسهم، شرط أن يُملوا، في بعض الأحيان، إرادتهم أو بالأحرى أن يتسلّطوا على حرية غيرهم، قلت ولأنهم يكلّفون أنفسهم، طول حياتهم، عمل ما يشمئزون منه ولا يتورعون عمّا به غضاضة كي يكونوا آمرين. فتجنّيهم علي لم يكن إذن في تنحيتي عن المجتمع على أنيّ عضو غير نافع، بل بإبعادي عنه من دون محاكمة، على أني عضو مفسد؛ وأنا أصرّح بأني أقللت من عمل الخير لكنني لم أعمل شرّاً ولا غشي الشّرّ إرادتي طول حياتي، وأشكّ أن يكون في العالم رجل قد عمل من الشّرّ في الحقيقة والواقع، أقلّ مما عملت.

النزهة السابعة

لم تكد مجموعة أحلامي الطويلة تبتدئ، ومع ذلك فها إنيّ أشعر أنها قد اقتربت من النهاية. إن تسلية أخرى حلّت محلّها تشغل مني البال وتستغرق جميع أوقاتي حتى الآونات التي أستسلم فيها إلى الأحلام وها إنيّ أقبل على هذه التسلية بولع يشبه الهوس ويضحكني كلّما فكرت فيها، ومع ذلك فأنا مقبل عليها، لأن وأنا في الموقف الذي أراني فيه، لا أجد قاعدة أسير على هديها إلا أن أتّبع ميلي كلّ الاتباع، من دون إكراه، وليس لي إلّا ميول بريئة، ولست أعير، منذ الآن، التفاتاً إلى آراء الناس فيّ، ولذلك فإن الحكمة نفسها تريد مني، في ما يتعلق بالأمور التي مازالت في متناولي، أن أعمل ما يطيب لي، سواء أكان ذلك علانية أم على انفراد، ومن دون التقيّد بقاعدة سوى هوى نفسي، ومن دون أيّ حدود سوى مدى القوة القليلة التي تبقت لي. فها أنا ذا، إذن مع الحشائش أستمد منها كلّ غذاء ومع علم النبات أكرّس له كلّ عمل. كنت قد أدركت الشيخوخة عندما تلقيت من هذا العمل معرفة سطحية من الدكتور ديفرنوا في سويسرا، كما كنت قد حالفني التّوفيق

في جميع هذه الحشائش في أثناء أسفاري لألِمّ بعالم النبات إلمامة عابرة، ولكنّي، إذ نيّفت على السّتين، وإذ أصبحتُ قُعَدة وأنا في باريس، وإذ أخذت قواي الخائرة تحول دون الانصراف إلى هذا العمل، وإذا كنت فوق ذلك مكبّاً على نسخ القطع الموسيقية، التي كانت تغنيني عن كلّ عمل آخر، لذلك جميعه اِطّرحت هذه التسلية. وكنت قد بعت مجموعتي من النباتات والحشائش كما بعت كتبي، وارتضيت بأن أعيد النظر، بعض الأحيان، في بعض النباتات العادية التي كنت أجدها في نزهاتي حول باريس، وفي مدّة هذه الفترة غاب عن ذاكرتي تماماً القليل الذي كنت أعرفه، وامّحى بأسرع مما علق فيها.

وإذا بذلك الهوس يعاودني وقد تجاوزت الخامسة والسّتين، وحُرمت القليل من الذّاكرة التي كانت لي، ومن القوى التي بقيت لي، لأتمكّن من أن أجوب البرّيّة، بلا دليل ولا كتب ولا بستان ولا حقيبة حشائش، ولكني، في معاودتي، كنت أكثر حميّة مني في المرّة الأولى(1)،

(1) بالاستناد إلى ما كتبه ل. ج. كورتوا، يتضح أن جان جاك روسو أقبل على جمع الحشائش للمرة الأولى منذ قدومه إلى باريس سنة 1773-1772، وكان عمره يومئذٍ أكثر من ستين، وكان قد أتم رسائله "في عالم النبات" الموجهة إلى السيدة ديليسير. وفي سنة 1774 ملكته من جديد هواية الموسيقى (عند وصول جلوك إلى باريس، ونسخ لهذا الأخير وللمركيز دون جيرادان ألحاناً إيطالية. والموسيقى الجديدة المعنونة باسم "عراف القرية" يعود تاريخها إلى سنة 1774. وفي 11 تموز/ يوليو سنة 1776 كتب روسو إلى الدوقة دو بورتلاند أنه قد ألقى جانباً بجميع الكتب الخاصة بعلم النبات، لأن هذه التسلية المستحبة أصبحت متعبة جداً. وأخذ يفكر في "هواجسه" بعد حوالي ثلاثة أشهر من هذا التاريخ. إذن في شهر تموز/ يوليو سنة 1777 عاد إلى جمع الحشائش، واعتماداً على تسلسل هذه التواريخ، يكون قد ألف الهواجس السبعة الأولى في مدة سبعة أشهر على الأقل، أي ابتداءً من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1776 إلى تموز/ يوليو سنة 1777.

وإذا بي أيضاً أعمل جاهداً على استظهار كتاب عالم النبات تأليف موراي وعلى الإلمام بجميع النباتات المعروفة على الأرض. وكانت حالي لا تسمح لي بأن أعيد مشترى كتب علم النبات، فآليت على نفسي أن أنسخ بخطّي جميع ما استعرته من هذه الكتب. كما عقدت العزم على إعادة عمل مجموعة من الحشائش أغنى من الأولى، في انتظار أن أضمَّ إليها، في ما بعد، جميع أعشاب البحر وجبال الألب وجميع أشجار الهند. بدأت، في سهولة، بجمع نباتات: الرّتم، والبقدونس البري، والحمحم، والشيخيّة وما أجده نابتاً فوق أقفاص الطيور، وما أجده مصادفة من أي نوع كان من أنواع الأعشاب، وأنا راضٍ عن نفسي، قائل لها: انظري هذه نبتة جديدة تضاف إلى المجموعة.

أنا لا أحاول أن أسوِّغ استسلامي إلى هذه الهواية الطارئة، فهي معقولة جدّاً، لأنيّ مقتنع أن استسلامي، في الموقف الذي أنا فيه، للتّسليات التي تطيب لي هو حكمة بالغة بل فضيلة كبيرة؛ إنه الوسيلة التي تجنِّب قلبي أن تختمر فيه خميرة حقد أو بغضاء والتي تسمح لي أن أجد في المصير الذي قُدّر لي تذوقاً لغَلّة أو تسلية، ولا بدّ لذلك من طبيعة تحرّرت من كلّ هوى لا تنفع غلّته، وهذا ضرب من الانتقام من مضطهديّ ابتدعته، لأنّه ليس في استطاعتي أن أنزل بهم انتقاماً هو أشدّ قسوة من معرفتهم كوني سعيداً رغم أنوفهم.

أجل، إن العقل يسوِّغ لي، بلا شكّ، بل يفرض علي فرضاً، أن أستسلم لكلّ ميل يجتذبني ولا يمنعني من اتّباعه مانع ما، ولكنّه لا يُنبِّئني بالسّبب الداعي إلى اجتذاب هذا الميل إيّاي، ولا بالفتنة التي يمكن أن أجدها في دراسة باطلة لا جدوى منها ولا ترقية للعمل،

دراسة تعيدني إلى رياضات الشباب ودروس الطلاب، إذ أصبحت شيخاً ثرثاراً متثاقلاً، لا ذاكرة لي، ولا إمكانيات في يدي. والواقع أن لهذه الدّراسة غرابة أودّ أن أشرحها، لأنه يخيل إليّ أنها إذا ما أُوضِحت أمكنها أن تلقي ضوءاً جديداً على معرفتي لنفسي، هذه المعرفة التي كرّستُ، في سبيل اكتسابها، أوقات فراغي الأخيرة.

لقد فكرت، بعض الأوقات، تفكيراً عميقاً بلغ حدَّ الكفاية، ولكن ندر أن فكرتُ بلذّة، ويكاد يكون تفكيري دائماً رغم إرادتي، وكما لو كان بالإكراه؛ إن الاسترسال إلى عالم الخيال يريحني ويلهيني، والتروّي يتعبني ويحزنني، إن التفكير كان لي دائماً عملاً مضنياً لا بهجة فيه، وفي بعض الأحيان تنتهي بي تخيلاتي إلى التأمّل، ولكن، في أغلب الأوقات، تنتهي تأمّلاتي بالتخيّل، وفي أثناء هذا البُحران تهيم نفسي وتحوم فوق العالم على أجنحة الخيال، في انجذابات روحية تفوق في لذّتها جميع الملذّات.

وما دمتُ أتذوَّق هذه اللذة في براءتها الحلوة، فإن كلّ عمل آخر كان في عيني تافهاً، ولكنّي، لما ارتميت في أحضان المهنة الأدبية بدوافع غريبة، أحسست بمتاعب العمل الذهنيّ وبعدم جدوى شهرة تعسة، وأحسست، في الوقت نفسه، بشحوب تخيُّلاتي الحلوة وفتورها، ثم لم ألبث أن اضطررت مرغماً إلى الاهتمام بموقفي المحزن فأصبحت لا أستطيع، بعد هذا، أن أهتدي، إلّا نادراً جداً، إلى تلك الانجذابات الروحية العزيزة التي قامت في نظري مقام الثروة والمجد طوال خمسين سنة، والتي، دونما بذل أو إنفاق، سوى بذل الوقت، جعلتني، في أحضان البطالة، أسعد بني الإنسان.

وكان عليّ أيضاً أن أخشى في "هواجسي" أن مخيّلتي، وقد نفّرتها مصائبي، تتحوَّل بنشاطها نحو هذه المصائب، وأن استمرار إحساسي بهمومي، إذ يُطبق بالتدريج على قلبي، يفضي بتلك الهموم إلى أن تسحقَني تحت عبئها. وفي هذه الحال كانت غريزة طبيعية فيّ، إذ تُجنّبني كلّ فكر مُحزن، تُلزم مخيّلتي بالصّمت، كما تُحوِّل انتباهي إلى الأشياء المحيطة بي فتحملني، لأولّ مرة، على تفصيل منظر الطبيعة الذي لم يتقدم لي أن تأملت فيه إلا جملة ومجموعاً.

إن الأشجار والشّجيرات والنباتات هي حِلى الطبيعة وكُساها. ولا شيء أدعى إلى الكآبة من بريّة عارية جرداء لا تبسُط للناظر إلا حجارة وطيناً ورمالاً. ولكن إذا بعثت فيها الحياة الطبيعة وكستها ثوب عرسها ما بين مجاري المياه وتغريد الطيور، فإن الأرض تعرِض على الإنسان، في تناسق العوالم الثلاثة منظراً مليئاً بالحياة والسّحر ومثيراً للاهتمام، وهو، في العالم، المنظر الوحيد الذي لا يملُّه العين والقلب أبداً.

وكلّما كانت نفس المتأمل مرهفة الإحساس، ازداد استسلاماً إلى الانجذابات الروحية التي يُثيرها فيه هذا الانسجام، فتستولي على حواسّه عند ذاك تخيلات حوله عميقة، ويتيه، وهو في نشوة لذيذة، في لا نهاية هذا التنظيم الجميل الذي يُحسُّ أن ذاتيّته قد اندمجت فيه، وعندئذ تختفي أمام عينيه جميع الأشياء الجزئية، فلا يرى شيئاً إلّا في الأشياء الكليّة، ولا يحسّ شيئاً سواها. ولا بدّ من ظروف خاصة تضيّق أفكاره وتطوّق خياله حتى يستطيع أن يُمعن النظر، جزءاً فجزءاً، في هذا العالم الذي يحاول أن يحتضنه.

وهذا هو ما حدث لي بقوّة الطبيعية وحدَها، عندما كان قلبي، وقد أطبقت عليه الوَحشة، يُقارب بين هذه الحركات حوله ويركّزُها كي يحتفظ بتلك البقية من الحرارة التي توشك أن تتبخّر وتنطفئ في الانهيار الذي كنت في سبيل الوقوع فيه تدريجياً. كنت أهيم بتراخٍ في الغابات والجبال وأنا لا أجرؤ على التفكير حَذَرَ أن أذكي نار آلامي. وكانت مخيلتي، إذ تأبى الوقوف على الأشياء التي تثير كوامن الهموم، تطلق السّراح لحواسي كي تستسلم إلى الانطباعات اللطيفة الحلوة التي تثيرها الأشياء المحيطة بي. وكانت عيناي تنتقلان سارحتين بلا انقطاع من شيء إلى آخر، ولم يكن بالمستطاع، في مجموعة كهذه مختلفة الأشكال والألوان، ألّا يكون فيها ما تحدّقان إليه أكثر من غيره، وما لا يسترعي انتباهما وقتاً أطول.

وطابت لي فترة هذه الاستراحة، استراحة العينين التي، إذا ما خان المرءَ التوفيق، تريح وتُسلي وتلهي الذهن، وتُوقف إلى وقت ما الشّعور بالهموم. وطبيعة الأشياء تساعد على هذا التلاهي جدَّ المساعدة وتجعله أكثر فتنة. إن الروائح الذكيّة، والألوان الصّارخة، والأشكال البالغة الحدّ في الأناقة تبدو وكأنها تتنازع، بجميع قواها، حقَّ استرعاء انتباهنا. ولا يقتضي الاستسلام إلى هذه الأحاسيس المتناهية في العذوبة إلا الشّعور بتذوق اللّذة، وإذا لم يستشعر باللذّة جميع من وقعت هذه المناظر تحت أعينهم، فلأنّ بعضهم يعوزُه الإحساس الطّبيعي، ولأن معظمهم إذا ملكت عليه مشاعرَه أفكارٌ أخرى، لا يستسلم، إلّا خلسة، إلى الأشياء التي تؤثر في حواسّه.

وهناك شيء آخر له تأثيره في تحويل انتباه أرباب الذّوق عن

عالم النّبات، إنّه العادة التي ألفها الناس في أن لا يروا في النباتات إلّا عقاقير وأدوية. وقد رأى الفيلسوف تيوفراست خلاف رأيهم، ويمكن أن نعدّه كالعالم الوحيد في النبات عند الأقدمين: ولذلك لا يكاد يكون معروفاً لدينا، ولكن بفضل رجل يدعى ديوسكوريد(2) من كبار جامعي وصفات تركيب الأدوية، وبفضل تعليقاته، اشتدَّ إقبال الطِّبّ على النباتات مُحوَّلة إلى حشائش بسيطة لا يُرى فيها إلّا ما لا يُرى أبداً، أعني الخواصّ المزعومة التي طاب لهذا أو لذاك أن ينسبها إليها.

إنهم لا يُدركون أن الأنظمة النّباتية تستحقُّ بذاتها أن تسترعي بعض انتباههم، فهناك أناس يُنفقون حياتهم لتنظيم الأصداف بطريقة علمية، يسخرون من علم النّبات على أنّه دراسة غير نافعة، إن لم يضمَّ إليه، على زعمهم، درس خصائص النبات، وأعني، عندما نهمل ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبداً والتي لا تُفصح بشيء عن هذه الخصائص، كي نأخذ بأقوال النّاس الذين هم كذّابون والذين يؤكّدون لنا أقوالاً يجب أن نُصدِّقَها اعتماداً على تأكيدهم فقط، وهي أقوال منقولة في أكثر الأحيان عن مزاعم آخرين. قف في مرج مزركش بالأعشاب والأزهار فاحصاً الأزهار التي تتلألأ فيها، زهرة بعد زهرة، فيعتقد الذين يرونك أنك طبيب نقّال، فيُقبلون عليه، هذا يطلب منك أعشاباً تشفي حكّة الأطفال وجَرَب الرّجال، وذلك حشائش تزيل خَنَب الأحصنة. وهذا الاعتقاد السّائد المُستكره قد

(2) إن الإيضاحات الدقيقة الخاصّة بتيوفراست وديوسكوريد تدلّ على أن تذكّر علوم الأقدمين قد ظلّ حياً، في جميع الأذهان إلى القرن الثّامن عشر.

تلاشى تلاشياً جزئياً في البلاد الأخرى ولاسيما في إنجلترا وذلك بفضل العالِم لينوس الذي انتزع، بعض الشيء، علم النبات من مدارس الصّيدلة وأعاده إلى التّاريخ الطبيعي وإلى الأغراض الاقتصادية. وأما في فرنسا، التي لم ينفذ بعد فيها هذا العلم إلى رجال المجتمع، فقد ظلّوا، في هذا النّحو، برابرة إلى حدّ أن أحدهم، إذ رأى في لندن حديقة نادرة المثال ملأى بالأشجار والنباتات النّادرة الوجود، صاح قائلاً: "هاك حديقة صيدلي جميلة". فعلى هذا يكون أوّل صيدليّ آدم، لأنّه لا يمكن تصوّر بستان أكثر تنويعاً للنباتات من جنّة عدن.

وهذه الأفكار الطّبّية ليس من شأنها، دون شك، أن تجعل علم النبات محبّباً مستحّباً لأنها تذبل تنوُّع ألوان الأزهار في المروج، وتطفِئ لَألَاءَ الأزهار، وتجفِّف نضارة الغياض وتجعل الخضراء والظلال تافهة مستكرهة، وجميع هذه التراكيب المنظّمة السّاحرة الأنيقة قل أن تسترعي اهتمام ذلك الذي لا يتوّق إلّا لسجن جميع هذا في جرن، ولن يذهب أبداً باحثاً عن ضمائم زهر يُزيّن بها أواني بهوه، فيلتمس ضمائمَه بين أعشاب جُمِعت لغسل الأمعاء.

وهذه الصيدلية كلّها ما كانت لتدنِّس الصُّور التي كنت أتصوَّرها عن الحقول، وما من شيء كان أبعد عن هذه الصُّور من مياه الحشائش المغليّة ومن اللازوقات، وكثيراً ما فكّرت، وأنا أتأمل في الحقول، وأجيل الطّرف في الرياض والغابات وساكنيها، أن عالم

النبات مخزن موادّ غذائية وفَّرتها الطبيعة للإنسان وللحيوان[3]. ولكن لم يَدُر قطُّ في خلدي أن أبحث فيها عن العقاقير والأدوية.

ولست أرى في منتجاتها المختلفة ما يدلُّني على استعمال كهذا، ولو أنها وصفت لنا مثل هذا لهدتنا إلى طريقة الاختيار. وأظن أيضاً أن اللذة التي أتذوقها من جولاتي في الغياض ينغّصها الإحساس بعاهات البشر وسقامهم، إذا أذكرتني هذه المنتجات بالحمّى والنقرس والصّرع وحصاة الكلى. وعلى كلّ حال، فأنا لا أنازع الحشائش في ما ينسبونه إليها من الخصائص، بل أقتصر على القول إنه لو افتُرض وجود هذه الخصائص فإنه من الخبث في مكان عظيم أن يظلّ كثير من المرضى على ما هم عليه من السّقَم، لأنه من بين الأمراض الكثيرة التي يشكو منها الناس لا مرض واحد يشفيه عشرون نوعاً من هذه الحشائش تمام الشفاء.

إن مثل هذه التحوّلات في الذهن وهي التي توجّه دائماً كلّ شيء نحو مصلحتنا المادية، والتي تبحث حيثما كان عن منفعة أو عن أدوية، والتي تجعل الإنسان ينظر بلا مبالاة إلى كلّ الطبيعة إذا كانت حاله غير حال، - إن هذه التحولات لم تكن من دأبي قط، فإني أشعر إزاءها بخلاف ما يشعر به جميع الناس؛ إن كلّ ما يتعلق بالإحساس بحاجاتي يحزن خواطري ويفسدها، ولم أجد قط فتنة حقيقية للذّات الرّوح إلّا بعد أن ملت عن الاهتمام ببدني كلّ الميل.

---

(3) يرى ج. س. سبنك بحق أن برناردان دوسان بيير قد كان له تأثير ممكن بما أبداه روسو في هذه الملاحظة التي ما كان يبديها لولا هذا التأثير، لأنه في كتابه: فعل إيمان حمل على القائلين بهذا حملة شعواء، بينما نرى برناردان يجعل منه مبدأ ونظاماً في كتابه: **دراسات الطبيعة**.

وهكذا فلو كنت، مع كلّ هذا، أؤمن بالطب، وأجد هذه الأدوية مُحبّبة، لما وجدت قط، في اشتغالي بهذا أو ذاك، هذه الملذات التي توفّرها تأملات بريئة لا ترمي إلى غرض ما، كما أن نفسي لا يمكنها أن ترتفع بحماستها، وتحوم فوق الطبيعة، ما دمت أُحِسُّ أن نفسي تحتفظ بالروابط التي تربطها ببدني. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أنه لم تكن لي قطّ ثقة بالطِّبِّ كبيرة، فلطالما وضعت ثقتي بأطباء كنت أوقّرهم وأحبُّهم وأكِلُ إلى كفايتهم أمر العناية بجسدي. لقد علمتني خمس عشرة سنة من الخبرة ما لم يكن لمصلحتي، وأما وقد عدت اليوم إلى العمل بقوانين الطبيعة فقد استعدت عافيتي الأولى. وإذا لم يكن للأطباء شكاية غير هذه يوجهونها إليّ، فمن ذا الذي يدهش من بغضهم إياي؟ إني برهان حيٌّ على بطلان فنِّهم وعدم جدوى ما يبذلونه من علاج.

لا، لا شيء خاصّاً بي، ولا شيء مما فيه منفعة لجسدي يستطيع أن يشغل نفسي. ولقد أصبحت لا أتأمل، ولا أحلم أبداً بالذّ مما أحلم به إلّا عندما أنسى نفسي. إني أحسُّ بانجذابات روحيّة وبضروب طرب وافتتان، لا سبيل إلى التعبير عنها إذا انصهر في نظام الكائنات، وإذا اندمج بذاتي في الطبيعة بكلّيتها. وكنت أضع مشاريع تؤدّي إلى السّعادة الأرضية يوم كان الناس إخوتي، وما داموا كذلك، وكانت هذه المشاريع نسبيّة خاصّة بالكلّ، ولهذا ما كان يُمكنني أن أكون سعيداً إلّا بسعادة المجموع، ولم تؤثّر قط في قلبي فكرة سعادة شخصية، إلّا عندما رأيت إخوتي لا يلتمسون سعادتهم من غير بؤسي، وعندئذ فررت منهم كي لا أُبغضهم، وعندئذ أيضاً، احتميت بالأم الشّاملة بأمومتها كلّ الناس، جاهداً، بين ذراعيها، بأن أتقي أذى بنيها، فأمسيت منفرداً بنفسي، أو كما يقولون نافراً من المجتمع، مبغضاً

للناس، لأن أشدَّ العزلات وحشة تبدو لي مفضَّلة على مجتمع الأشرار وهو الذي لا يتغذى إلّا بالخيانة والبغضاء.

ولما أُكرهت على الامتناع عن التفكير، خشية أن أفكّر في مصائبي رغماً عني، وأكرهت على كبح مُخيِّلة ضاحكة ولكنها في وهن وفتور، ولما أكرهت على محاولة نسيان الناس الذين يُلصقون بي العار والإهانة، خشية أن يُفضي بي السُّخط والغضب للكرامة، في آخر الأمر، إلى حمل الحقد عليهم، وجدتُني مع ذلك لا أستطيع أن أنطوي على نفسي انطواءً كليّاً، لأنها، إذ طُبعت على البوح بمكنوناتها، تنزع إلى بسط مشاعرها ووجودها على كائنات أخرى، ولأني لا أستطيع، كما كان في الأمس دأبي، أن أرتمي، من دون تروٍّ، في محيط الطبيعة الواسع، لأن قواي، وقد ضعفت وارتخت، أصبحت لا تجد أشياء معينة، ثابتة كلّ الثّبات، قريبة المتناول، كي أتمسَّك بها بقوة، ولأني أصبحت لا أُحِسُّ بكفاية من النّشاط كي أسرح في خلاء من انجذاباتي القديمة. إن أفكاري أضحت أحاسيس، ودائرة فهمي لا تتجاوز الأشياء التي تكتنفني مباشرة.

وإذ أصبحت أفرُّ من الناس في طلب الوحدة كما أصبحت قليل التفكير، مع أني أوتيت مزاجاً حاداً يُجنّبني الجمود المضيع للنشاط، أخذت أوجِّه اهتمامي إلى كلِّ ما يحيط بي، وبدافع من غريزة طبيعية، كنت أفضّل الأشياء المستحبة. وعالم المعادن ليس له في ذاته ما يحبِّب به وما يجذب إليه، وخيراته المدفونة في باطن الأرض يبدو وكأنها أخفيت عن الأنظار كيلا تثير جشع الناس، وهذه الخيرات مدفونة هناك كأنها ثروة احتياطيّة ينتفعون بها يوماً لسدِّ حاجتهم إلى الخيرات الحقيقية التي هي أقرب متناولاً والتي يضيعون لذّة تذوقهم لها بنسبة ما يحلُّ

بهم من فساد. وهكذا يضطرهم الأمر إلى الاستعانة بالصّناعة والمشقّة والكدّ والكدح لتعينهم على بؤسهم، ينبشون في أحشاء الأرض باحثين منقبين في بطنها، معرِّضين للأخطار حياتهم وصحتهم، طلباً لخيرات وهميّة بدلاً من خيرات حقيقية كانت الأرض تقدِّمها لهم، من تلقاء نفسها، يوم كانوا يعرفون أن يتنعموا بها.

يهرب الإنسان من الشمس والنهار اللذين لا يستحقُّ أن يراهما، هو يدفن نفسه حياً، وحسناً يصنع، لأنه لا يستحقُّ أن يعيش في ضياء النهار. هناك مقالع ووهاد، ومصانع حديد، وأفران لصهر المعادن، وسدّانات وشواكيش، ودخان ونار، كلّها تخلف حلاوات صور أعمال الحقول. فالوجوه الشاحبة الهزيلة، والمساكين الذين يتناهبم الذُّبول، والحدادون الذين صبغهم السواد، والعمالقة البشعون ذوو العين الواحدة، كلّ هذا هو المنظر الذي تستبدل به، في بطن الأرض، آلات التعدين، الخضرة والأزهاء والسماء الزرقاء والرعاة العاشقين والحرّاث المشدودي العضلات، البارزين على سطحها.

وأنا لا أنكر أنه يسهل على المرء أن يذهب فيلتقط الرمال والحجارة، ويملأ بها جيوبه ومكتب عمله، وأن يظهر هكذا بمظهر عالم من علماء الطبيعة: ولكن الذين يتعلّقون في هذا الأمر ويقتصرون على أنواع هذه المجموعات، هم عادة أغنياء جهلة لا يبتغون من وراء هذا إلّا التلذذ بعرض ما يجمعونه على الأنظار.

وتوصلاً إلى الاستفادة من دراسة المعادن يجب أن يكون الباحث كيماوياً ومُلمّاً بعلوم الطبيعة، وأن يقوم باختبارات شاقة باهظة الأكلاف، وأن يعمل في المختبرات، وأن ينفق كثيراً من المال، كما

يجب عليه أن يعمل أيضاً بين الفحم والبُوتقات والأفران والقرعات الزجاجية، وفي وسط الدخان والبخار، وتحت خطر دائم من فقد حياته وضياع صحّته، من كلّ هذا العمل الكئيب المتعب يَنتُج عادة لصاحبه من الكبرياء أكثر مما يَنتُج له من المعرفة، وما من كيماويّ بلغ من المعرفة الحدّ الأوسط إلّا اعتقد أنه قد سبر غور أعظم تفاعلات الطبيعة عندما اهتدى إلى بعض التركيبات الصغيرة الغنية التي ربما كان اهتداؤه إليها مصادفة واتفاقاً.

إن عالم الحيوان أقرب متناولاً إلينا، وهو يستحقُّ، بالتأكيد، أن يُدرس دراسة أحسن. ولكن، أليست لهذه الدراسة مصاعبها وارتباكاتها ومتاعبها وما تثيره من كراهية، ولاسيما لرجل منقطع عن الناس، منفرد بنفسه، لا أمل له أن يستعين، في عمله، بأيٍّ كان؟ كيف يتمُّ لي أن أراقب وأشرح وأدرس وأعرف الطيور السّارحة في الفضاء، والأسماك السّابحة في الماء، وذوات الأربع التي هي أخف من الهواء وأقوى من الإنسان والتي ليست على استعداد للإقبال نحوي لأجري عليها بحوثي، ولا في مقدوري أن أجري أنا وراءها فأرغمها على الخضوع؟ إذن لم يبق لي من وسيلة إلّا الحلزونات والدود والذباب، وسأقضي حياتي وأنا لاهث الأنفاس في الجري وراء الفراش، وفي تحنيط الحشرات المسكينة وتشريح الفئران، عندما أستطيع القبض عليها، وفي تشريح جِيَف الوحوش التي قد أعثر عليها مصادفة. أن دراسة الحيوانات لا تعدل شيئاً مذكوراً من دون علم التّشريح الذي به يتعلم الباحث أن يرتّب فصائلها ويُميّز بين أنواعها وأجناسها.

وتوصُّلاً إلى دراسة أخلاقها بالوقوف على طباعها، لا بدّ من

أقفاص للطيور وأحواض للأسماك وحظائر للوحوش. ويجب، فوق ذلك، إرغامها على البقاء متجمعة حولي، وأنا لا ميل لي ولا وسائل عندي فاحتفظ بها رهينة الأسر، ولا أنا وُهِبت لي الخفّة اللازمة فأستطيع اللّحاق بها إذ تسير خبباً أو عدواً أو تقريباً، وهي مطلقة السراح، وعلى ذلك لا مندوحة لي عن أن أقوم بدراستها وهي ميتة، وأن أتولى تقطيعها وتجريدها من عظامها، وأن تسنح لي الفرص ويتسع لي الوقت لأنقّب في أحشائها المثلجة، وأقسم أن ليس إلى ههنا سيذهب جان جاك يطلب ما يلهو به.

أيّتها الأزهار المُلألئة، طلاء الروح، وأنت أيّتها الظّلال المنعشة الرطبة والجداول والرياض والخضرة! تعالي طهّري أخيلتي من الدّنس الذي تلطّخه به هذه الأمور البشعة. إن نفسي التي ماتت في السعي وراء عظام الأمور، أصبحت لا تنفعل إلّا بكلّ ما هو مؤثر. لم يبقَ لي إلّا الأحاسيس، وبها وحدها يستطيع الحزن أو السُّرور أن يصلا إليّ في هذه الدنيا. وإذ أراني وقد فتنتني الأشياء الضاحكة المحدقة بي، فها إني أمعن النظر فيها، وأتأمّلها وأقابل بينها، وها إني قد أمسيت، على حين فجأة، مشتغلاً بعلم النبات، قدر ما يحتاج إليه من لا يقبل على دراسة علوم الطبيعة إلّا ليجد، يوماً بعد يوم، دواعياً جديدة للإغرام بها.

لست بطالب ثقافة، فلقد فات الأوان. أجل، إني لم أرَ قط أن الاستزادة من العلم تورث سعادة الحياة. ولكني ألتمس ملاهياً حلوة بسيطة أستطيع أن أتذوقها بلا مشقّة، وأن ألهو بها عن مصائبي. فلا نفقات أتحمّلها ولا مشقّة أقاسيها إذ أتنقّل باسترخاء من عشبة إلى عشبة، ومن نبتة إلى نبتة، فأنظر فيها فاحصاً، وأوازن بين طبائعها

المختلفة، وأتبيّن علاقاتها وفروقها، وأخيراً، لكي أراقب التنظيم النباتي بطريقة تتيح لي اتباع سير هذه الآلات الحيّة وغرائبها، ولكي أبحث في بعض الأحيان عن قوانينها العامة، وعن سبب ضروب تكوينها المختلفة وعن غايته، ولكي أستسلم إلى فتنة إعجابي الممزوج بالعرفان لجميل تلك اليد التي أتاحت لي التلذذ بهذا كلّه.

ويبدو أن النباتات قد زرعت بسخاء على الأرض، كما نثرت الكواكب على وجه السماء، لتدعو الإنسان، بجاذب من اللذة والفضول، إلى دراسة الطبيعة، ولكن الكواكب نُثرت بعيداً عنا، فلا بدّ من معارف تمهيدية، ومن أدوات وآلات، ومن مراقٍ طويلة جدّ الطول لنصل إليها ونقرّبها من متناولنا. وأما النباتات فهي بطبيعتها في متناولنا، تنبت تحت أقدامنا بل في أيدينا، وإذا كان صغر أجزائها الجوهرية يخفيها، أحياناً عن الأنظار، فإن الأدوات التي تكبرها وتبرزها للعيان هي أسهل جداً في الاستعمال من أدوات علم الفلك. وعلم النبات هو دراسة عاطل من العمل كسول منفرد بنفسه؛ فلا حاجة لمحترف هذا العلم إلّا إلى حدّ وعدسية مكبِّرة، فهو يتنزَّه وينتقل، حُرَّاً هائماً، من غرض إلى آخر ويستعرض كلّ زهرة باهتمام وفضول، ولا يكاد يتبيَّن قوانين تكوينها حتى يتذوّق، في مراقبتها، لذّة من دون مشقة تعادل تلك اللذة التي يستسيغها بعد تعب. وفي هذه الهواية فتنة لا يشعر بها المرء إلّا في تمام سكون الشهوات ولكنها تكفي وحدها لجعل الحياة سعيدة حلوة ولكن ما إن يمتزج بهذه الهواية داعي مصلحة أو كبرياء، سواء أكان ذلك لملء وظائف أم لتأليف كتاب أم بغية التعلّم لتثقيف الناس أم ليصبح جامع الحشائش مؤلفاً أو أستاذاً، ما إن تمتزج هذه الدواعي، حتى تتوارى تلك البهجة العذبة وتزول

لذّة هذه الدراسة، لأن المشتغل بها لا يطلب معرفة ولكن تبجّحاً بالمعرفة، وكأنه، وهو في الغابات، على مسرح من مسارح المدن، لا همّ له إلّا إعجاب الناس به. وهناك أناس يكتفون بالاشتغال بعلم النبات في مكاتبهم أو في حدائقهم بدل أن يراقبوا النبات في الطبيعة، فلا يُولون التفاتاً إلّا إلى الأساليب وطرق الترتيب، مما يبعث مواضيع للنقاش والنزاع لا نهاية لهما، ولكنها لا تلقي النور على نبتة جديدة غير معروفة، ولا على التاريخ الطبيعي وعالم النبات. ومن هذا تتولد ضروب البغض والحسد التي تثيرها المزاحمة على الشُّهرة في قلوب المشتغلين بعلم النبات أكثر مما تثيرها في قلوب غيرهم من العلماء. ثم إنّهم، بتشويههم لهذه الدراسة المستحبّة، ينقلونها إلى وسط المدن والمجامع العلمية، حيث يتسرّب إليها من الفساد ما لا يقلُّ عما يتسرب إلى النباتات الغريبة في الحدائق المُعدّة للنباتات النادرة.

إن استعدادات مختلفة جدّ الاختلاف ولّدت عندي لأجل هذه الدراسة شغفاً يسُدُّ فراغ جميع الميول التي أصبحت خلواً منها. فها إني أتسلّقُ الصخور والجبال، وأتغلّل في ثنايا الأودية وفي الغابات لأتهرَّب، ما أمكنني، من ذكرى الناس وأذى الأشرار. ويُخيّل إليّ، وأنا في حجاب من ظلّ غابة، أنّي منسيٌّ من الناس، حرٌّ، أعيش في سلام وطمأنينة، كما لو لم يكن لي عدو، أو كما لو كانت أوراق أشجار الغاب قد بَسَطَت دوني، مِجَنّاً يقيني سهام أذى هؤلاء الأعداء بتنحية ذكراهم عني، إذ بلغ بي الغباء حداً اعتقدت معه أن اطّراحي ذكرهم يحملهم، هم أيضاً، على اطّراح ذكري. إني لأجد عذوبة كبيرة في تصديق هذا الوهم لو ترك لي الضعف والحاجة وما أنا عليه سبيلاً إلى تصديق هذا الوهم. كنت، كلّما اشتدَّ حولي ظلام الوحدة وكلّما زادت عمقاً، زادت

حاجتي إلى بعض أمور أملأ بها فراغها، وهذه الأمور التي يأباها عليّ خيالي، أو تلك التي تصُدُّها ذاكرتي كان يُعيضني عنها ما تنتجه عفواً هذه الأرض من الخيرات، بما تعرضه على أنظاري من كلّ ناحية، من دون إكراه من بني الإنسان. إن اللذة في ارتياد قفر طلباً لنباتات جديدة تطغى على لذّة الإفلات من أناس مضطهدين، وهكذا، فإذا وصلت إلى أماكن لا أتبيّن فيها هنا أو هناك آثاراً لرجال تنفست الصُّعداء بيُسر، كما لو كنت في ملاذ لا تطالني فيه بغضاؤهم.

وسأظل ذاكراً، ما حييت، مجموعة حشائش التقطتها يوماً من ناحية من نواحي "روبايلا" وهو جبل متولي سلطة القضاء فيه المسمى "كليرك". كنت وحدي أتوغّل في شعاب الجبال وأتنقّل من غابة إلى غابة ومن صخرة إلى صخرة حتى وصلت إلى عزلة منقطعة عن الناس بلغت الحد الأقصى من الخفاء عن الأنظار، بحيث لم أجد لها قطّ منظراً مثيلاً لها في وحشيّته. كانت أشجار من الشُّوح الأسود، تتخلَّلها أشجار من الزَّان الباذخ أدرك أكثرها الهرم وتساقطت فتشابك بعضها ببعض - كانت تسدُّ مدخل هذه العزلة بحواجز لا يُنفذ منها، وكان بعض ما وراء هذه الحظيرة القاتمة لا يعرض على الأنظار في ما تجاوز مدى البصر إلا صخوراً اقتطعت اقتطاعاً عمودياً من شامخ وإلّا هُوىً مُرعِبة كنت لا أجرؤ على النّظر إليها إلّا منبطحاً على بطني. وكانت طيور الصدى والبوم والعقاب تسمعُ صراخَها من شقوق الجبل. وهناك بضعة أطيار ناردة التنوع ولكنها مألوفة الوجود كانت مع ذلك تخفِّف من وحشة هذه الوحدة. هناك كنت أعثر على أنواع مختلفة من هذه الحشائش كالهندباء البرية وعرق المحمودية وغيرها من الأعشاب التي خلبت لبّي، واسترعت انتباهي. ولكن على غير شعور

مني، وإذ استولت عليّ الانطباعات القويّة التي تركتها هذه الأشياء في نفسي، لم ألبث أن نسيت عالم النبات وما يبحث فيه فارتميت على مخدّات الطحالب وطابت لي أكثر من قبل مراودة تلك الأحلام وأنا أفكر في أني قابع هنا في مكاني وفي ملجئي، منسي من الناس جميعاً لا يقوى فيه مُضطهديّ على إزاحة التّراب المنهار على مخبئي. فما عتمت أن امتزجت عاطفة زهوٍّ ورضا بهذه الهواجس. كنت أوازن بيني وبين هؤلاء الجوّابين الذين يكتشفون جزيرة مقفرة، فأقول لنفسي متملقاً: لا شكّ في أني، دون سواي من الأحياء، أول من تسلَّل إلى حيث أنا، بل كدت أحسب نفسي كولومبوس الآخر، أول مكتشف لليابسة، وعلى حين كنت فخوراً بنفسي، مأخوذاً بهذه الفكرة، سمعت غير بعيد مني ما يقرب أن يكون قعقعة ظننت أني تبيّنتُها، فأصغيت، فإذا بذات القعقة تتكرر وتتردد، فعرتني الدّهشة وأخذني الفضول، وانتصبت قائماً وشققت لي طريقاً من خلال الأدغال والأشواك. واتجهت إلى مصدر الصوت، فإذا بي، وأنا على بعد عشرين خطوة من المكان الذي ظننت أني كتت أول من بلغه، ألمح مَنسَجاً للجوارب.

ولا يسعُني أن أعبِّر عن الارتباك والاضطراب المتناقضي الأثر اللذين شعرت بهما عندما وقعت عيناي على هذا الاكتشاف. كان أول ما بدر مني عاطفة غبطة لوجودي من جديد بين أحياء يمتُّون بنسب إلى الإنسانية حيث ظننت أني كنت في وحدة شاملة، ولكن هذه الحركة البادرة التي كانت أسرع من البرق أحلت محلها عاطفة أليمة أكثر دواماً، كما لو كنت لا أقوى، حتى في أعمق أعماق جبال الألب، على الإفلات من تلك الأيدي القاسية، أيدي الناس الذين آلوا على أنفسهم إنزال العذاب بي. أجل كنت مؤقناً بأنه لم يكن في هذا المنسج رجلان

على الأقل مضطلعين بهذه المؤامرة التي نصّب الواعظ مونتمولان[4] نفسه رئيساً لها والذي كان يستمدُّ دوافعها من أبعد ما أدرك، فبادرت إلى استبعاد هذه الفكرة المؤلمة وانتهيت إلى أن أهزأ في قرارة نفسي من زهوي الصّبياني ومن الشكل المضحك الذي عوقبتُ به.

ولكن في الواقع، من ذا الذي كان يتوقع أن يجد مَنسَجاً في هُوّة؟ فما من بلد في العالم سوى سويسرا يجمع ما بين هذا المزيج من الطبيعة المتوحشة والصناعة البشرية. إن سويسرا كلّها ليست، إذا صحّ هذا التعبير، إلّا مدينة كبيرة، شوارعها الواسعة التي هي أطول من شارع سان أنطوان تبدو مزروعة بالغابات ومقتطعة بالجبال، وبيوتها المتفرقة المنفردة ما بينها لا تتصل إلا بحدائق على النّمط الإنجليزي. لقد تذكرت رحلة لجمع الحشائش قمت بها أنا ودو بيرو وديشرني والضابط يوري والقاضي كليرك منذ زمن فوق جبل "شاسرون" الذي تكتشف العين من أعلى قمته سبع بحيرات. لقد قيل لنا إنه ليس على هذا الجبل إلّا بيت واحد، ولعمري ما كنا توصّلنا إلى الاهتداء إلى حرفة ساكن هذا المنزل لو لم يقل لنا قائلهم إنه كُتُبيّ وإن تجارته هذه مُجدية في البلد.

ويبدو لي أن واقعة واحدة كهذه تُعرِّف السُّياح بسويسرا أكثر من كلّ ما وصفه الواصفون.

---

(4) المقصود بهذا هو راعي موتيه وكان قد ألقى عظة حمل فيها على روسو وكان السبب في رجمه بالحجارة ذلك الرّجم المعروف، مما دعا روسو للجوء إلى جزيرة سان بيير.

وهاك مثلاً آخر شبيهاً به أو يقرب أن يكون من نوعه يكشف عن مزايا شعب يختلف عنه كلّ الاختلاف، في أثناء إقامتي في "جرينوبل" كنت أقوم مراراً بالتقاط مجموعات صغيرة من الحشائش خارج المدينة مع السيد بوفيه المحامي في هذا البلد، لا لأنه كان يحب علم النبات أو يلم به، بل لأنه أخذ على نفسه أن يتولى السهر عليّ بحيث أصبح أتبع لي من ظلي، وفي ذات يوم ونحن نتنزّه على ضفاف نهر "الإيزير" في مكان مليء بشجر الصَّفصاف الشائك، رأيتُ على إحدى هذه الشُّجيرات ثماراً ناضجة، فدفعني الفضول إلى تذوُّقها، وإذ وجدت لها مذاقاً يشوبه قليل من الحموضة طيّب، أخذت آكل من هذه الحبّات لأرطب فمي، وكان السّيد بوفيه يقف إلى جانبي لا يقتدي بي ولا ينبس ببنت شفة. وأقبل صديق له وإذ رآني التقط هذه الحبوب صاح بي: "ما هذا الذي تصنعه يا سيدي، أتجهل أن هذه الثّمرة تُسمِّم؟"، فصحت وقد أصابني الذهول: "أهذه الشجرة تسمم؟" فأجاب قائلاً: "لا شكَّ في ذلك فكلّ يعرف هذا وما من أحد في هذه البلاد يحاول أن يتذوقها". فنظرت إلى السيد بوفيه وقلت له: "ولم لا تحذرني من هذا" فأجاب بصوت يمازجه الاحترام: "لم أجرؤ على مصارحتك بذلك". فغلب عليّ الضّحك لما بدا لي من مثل هذا التواضع المألوف في هذا البلد وامتنعت عن العودة إلى تناولي طعامي هذا. ومع ذلك كنت ولا أزال مقتنعاً أن كلّ ما تنتجه الطبيعة مما يستسيغه الذّوق ليس بمؤذٍ للجسم إلّا إذا أُفرِط في تناوله. ولست أنكر ما تملّكني من خوف بقيّة يومي ولكن ما انتابني يؤمئذ لم يتجاوز القلق، فقد تناولت عشاء طيّباً ونمت نوماً هادئاً وصحوت وأنا على أتمّ عافية، رغم أني بلعت أمس خمس عشرة أو عشرين حبّة

من ذلك السُّم المسمى باللاتينية (Hippolhaé) والذي يسبّبُ الموت البطيء إذا تناوله المرء بمقدار صغير وعلى دفعات، وذلك ما نقله إليّ في الغداة أهل مدينة "جرينوبل".

هذه الحادثة بدت لي جدّ مستحبة حتى ما من مرة تذكرتها إلّا أغرقت في الضّحك من حرص السّيد المحامي بوفيه على كتمان السّر والتحفّظ في الكلام.

فجميع غدواتي وروحاتي ذات الصّلة بعلم النبات، وجميع الانطباعات الناتجة من تذكر حالة الأماكن وموضع الأشياء التي استرعت انتباهي والأفكار التي أوحت إليّ بها والحوادث التي واكبتها، جميع هذا ترك في نفسي انطباعات تتجدد بمرأى النباتات التي التُقطت وجُمعت في هذه الأمكنة هي أنفسها، لا، لن أرى بعد اليوم هذه المناظر الجميلة، وهذه الغابات والبحيرات، وهذه الغياض والصّخور، وهذه الجبال التي كان لمرآها أبقى أثر في قلبي، ولكني، وقد أصبحت الآن لا أقوى على التنقل والجوَلَان في هذه الأرجاء السّعيدة، لم يبقَ لي من وسيلة إلا أن أفتح حقيبة حشائشي فلا تلبث أن تحملني بالفكر إلى هناك. إن بقايا الأعشاب التي جمعتها في هذه الأنحاء كافية لأن تذكرني بهذه المناظر الخلّابة، وهذه الحقيبة تقوم عندي مقام جريدة يومية أجدد فيها بيان أنواعهن واستعادة ما كتبته بفتنة جديدة، لها مفعول عدسيّة المصور، تعيد تلك الصّور إلى عينيّ مرة بعد مرة.

تلك هي سلسلة الأفكار الثّانوية التي تُسوِّغ تعلُّقي بعلم النبات، فهي تجمع شَتات أفكاري وتعيدُ إلى مُخيّلتي ذكرى جميع الأفكار التي تستسيغها أكثر من غيرها. فالمروج والغابات والمياه والعزلة، ولاسيما

الطمأنينة والسّكينة اللتان أجدهما ههنا، كلّ هذا مطبوع في ذاكرتي لا تمحوه الأيام. أجل، إن هذا جميعه يُنسيني اضطهادات بني الإنسان وبغضَاءَهم واحتقارَهم وامتهانَهم، وأذاهم وجميع تلك الأمور التي استبدلوني منها صِدْق تعلقي بهم وإخلاصي لهم.

هذا التسلسل في الأفكار - كما قلت - ينقلني من منزل هنيء إلى منزل لين بين أناس في السريرة بسطاء، أمثال أولئك الذين عشت معهم في الأمس، وهو يذكّرني، في وقت واحد، بشبابي ولذاتي البريئة، فأنعم باللذة مرتين. إنه يتيح لي أن أحيا أيضاً سعيداً في أكثر الأحايين وسط أشقى مصير عاناه مخلوق صائر إلى الفناء.

النزهة الثامنة

عندما أتأمل في جميع سجايا نفسي، يُدهشني أن أرى قلة التناسب الموجود بين مختلف ترتيبات ما قدر لي وبين العواطف التي ألفتها والتي أثّرت فيّ، سواء منها ما كان وليد الخير أو الشّر. إن فترات رخائي القصيرة المختلفة لم تكد تترك لي ذكراً واحداً مستحبّاً من نوع ذلك الذكر ذي الأثر الحميم الدائم، بل، بالعكس، كنت في جميع ضروب بأساء حياتي دائماً أفيض بعواطف الحنان المؤثرة المستساغة التي إذ كانت تسكب بلسماً شافياً على جراح قلبي المُمزّق، كانت كأنها تستبدل بالألم اللذة، إن تلك العواطف تعود إليّ ذكراها وحدها طليقة من ذكر الآلام التي كنت أعانيها معاً في وقت واحد. ويبدو لي أني قد تذوقت حلاوة العيش أكثر من قبل وأني قد عشت في الحقيقة حياة أطول في ذلك الزمن الذي ضُمَّت فيه عواطفي حول قلبي بيد مصيري فغدت لا تتحول بخاراً ولا تذهب جفاء إلى الخارج حول جميع من هم موضع توقير الناس الذين لا يستحقون إلّا قليلاً من التوقير بأعمالهم، والذين يتّجه إليهم اهتمام الناس لظنّهم إياهم سعداء.

وعندما كان كلّ شيء في نظام حولي، وكنت فرحاً بكلّ ما يحيط بي، وبالبيئة التي كان علي أن أعيش فيها، كنت أملؤها بعواطف مودّتي، وكانت نفسي البائحة بما في صدري تمتدُّ إلى أغراض أخرى. وإذ كنت دائماً تجذبني ميول بعيدة متعددة الأنواع وارتباطات محبّبة تملأ قلبي، كنت، على نوع ما، بكلّيتي لما كان غريباً عني، وكنت أعاني، وأنا في اضطراب قلبي المتعاقب، تقلبات أمور الناس. وهذه الحياة الصّاخبة ما كانت لتترك لي سلاماً في الداخل ولا راحة في الخارج. وإذ كنت أبدو سعيداً في الظاهر، لم أكن أملك عاطفة تثبت أمام تجربة التفكير وأستطيع أن ألتذَّ بها. ولم أكن قطّ راضياً كلَّ الرضا عن نفسي ولا عن غيري، وكان ضوضاء العالم يثقل عليّ والوحدة تبعث في نفسي السّآمة والضّجر. كنت دائماً في حاجة إلى التّنقل من مكان إلى مكان، وما كان يطيب لي في الحقيقة مجلس ما، ومع ذلك فقد كان يُحتفى بي في الأعياد، وتُستطاب عشرتي ويُحسَن استقبالي وألاطَف حيثما حللت. لم يكن لي عدوّ ولا شانٍ ولا حاسد. وإذ كان الناس لا هم لهم إلّا إسداء الجميل إليّ فقد كنت كثيراً ما يسرُّني أن أبدلهم جميلاً بجميل وإحسانا بإحسان. وإذ لم يكن لي مال ولا وظيفة ولا شفيع ولا مواهب أُحسن الاستفادة من إنمائها وأجيد الاستنارة بها، فقد كنت أتمتّع بجميع الميزات المترتبة على جميع هذا، ولا أرى أياً كان من الناس، في حال من الحالات، أفضل مصيراً من مصيري. فما الذي كان يعوزني إذن لأكون سعيداً؟ إني أجهل هذا، ولكني أعرف أني لم أكن كذلك.

أي شيء فاتني اليوم من ضروب الحرمان لأكون أشقى بني الإنسان؟ لا شيء مما أمكن الناس أن يسهموا فيه للوصول إلى هذه الغاية. أما والأمر كذلك، فإني، وأنا في هذه الحالة المحزنة، لن أستبدل

بعد بوجودي وبمصيري أكثرهم توفيقاً، وأفضّل أيضاً أن أكون أنا إيّاي بجميع ما يحيط بي من بؤس على أن أكون واحداً من هؤلاء الناس بجميع ما ينعُمُون به من رخاء. فأمّا وقد تُرِكَ أمري لنفسي فإني أقتات، كما هو الواقع، بمادتي نفسها، ولكنها لا تنفد، وأكفي نفسي بنفسي ولو أني، إذا صحّ هذا التعبير - أجترُّ على خلاء؛ وأن مخيّلتي الناضبة وأفكاري المطفأة أمست لا تغذي قلبي، وأن نفسي، وقد احتجبَتْ عنها الرؤية، وأعضاء جسدي وقد شُلّت عن الحركة، آخذة في الانحطاط من يوم إلى يوم، تحت عبء هذه الكتل، وقد أمست لا تملك نشاطاً كافياً، كشأنها في الأمس، كي تنزُوَ خارج غلافها العتيق.

إلى هذا الرجوع إلى أنفسنا ترغمنا البأساء، وربما كان هذا أشدّ ما يجعلها لا تحتمل من معظم الناس، وأما أنا الذي لا يجد ما يؤنّب نفسه عليه إلا غلطات، فإني أتّهم بها ضعفي وأتعزّى، لأنه ما من شرّ متعمّد اقترب قط من قلبي.

ومع ذلك، فكيف يمكن، ألّا أن أكون أبلهاً، وأن أتأمل هنيهة في الحال التي أنا عليها، من دون أن أتبيّن أنها قد بلغت من السُّوء الحدّ الذي أوصلوها إليه، ومن دون أن أهلك أسىً ويأساً؟ فبدلاً من هذا، أراني، أنا أرقُّ الناس شعوراً، أتأمّل في هذه الحال ولا أتأثر بها، ومن دون مقاومة ولا مجهود، بل من دون مبالاة ولا اكتراث، أراني في حال لن يتم لأحد غيري أن يطيق رؤيتها، دون أن يعتريه الذعر.

كيف وصلت إلى هذا الحد[1]؟ إني كنت بعيداً جدّ البعد عن هذا

---

(1) ابتداءً من هذا المقطع يبدو التشابه بيناً بين النزهتين الأولى والثامنة، والدليل =

الاستعداد النفسي الأول، عندما ساورني أول شكّ في المؤامرة التي وقعت في شباكها من زمن طويل، من دون أن يسترعي ذلك انتباهي، هذا الاكتشاف الجديد هزّ كياني. إن العار والخيانة أخذاني على حين غرة. أيّ نفس مستقيمة مؤهلة لمثل هذه الضروب من الهموم التي يجب أن يكون المرء قد استحقّها كي يعرف أن يستدركها؟ لقد وقعت في جميع الفخاخ التي نصبت لي، فاستولى عليّ الوجوم والسّخط والهذيان، وضللت سبيل الهدى، وتضعضعت أفكاري، في الظّلمات المروّعة حيث أمسكوا برأسي وتركوها غاطسة في قاع اللجّة. أمسيت لا ألمح بارقة نور لأهتدي بها، ولا سنداً فاستند إليه، ولا ممسكاً فأتمسّك به، ولا موقفاً أستطيع أن أقف ثابتاً فيه، فأصمد أمام اليأس الذي كان يجرّني وراءه.

من أين لي أن أعيش سعيداً هادئاً في هذه الحال المروّعة؟ ومع ذلك فها إني آخذ بجوانب العيش أكثر من قبل، وقد عدت فوجدت فيه الطمأنينة والهدوء، وها إني أهزأ بأسباب النّكد يتبادلها بلا انقطاع مضطهديّ، بينما أظلّ أنا في سلام أعنى بالأزهار والمنسوجات والأمور الصبيانية، ولا أفكر بهم.

كيف تمّ هذا الانتقال؟ تمّ طبيعياً بلا تعب ومن دون أن أحسّ به، إن أول مفاجأة كانت مرعبة، فأنا الذي كان يشعر بأني أهل للحبّ والتوقير، وأنا الذي كان يحسب نفسه مكرّماً محبوباً، كما كان يستحقّ

= على هذا الانطباع العميق الذي تركه، في ذاكرة روسو الفياضة بالعواطف، الهاجس المحزن المؤرخ في 24 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1776، ذلك الهاجس الذي يهيمن على تأليف الهواجس.

أن يكون - رأيتُني بين عشيّة وضحاها، متنكراً بلباس مسخٍ شنيع، بشع الصورة مما لم يعرف له مثيل، ورأيت جيلاً بأكمله يرتمي وسط هذا الرأي المستنكر الغريب، من دون أن يحاول تفسيراً لما رآه، ومن دون أن يتسرب إليه شك، ولا يداخله خجل، ومن دون أن أتمكن، على الأقل، من التوصل إلى أن أعرف سبب هذه الثورة الغريبة. لقد حاولت التملص، بكلّ ما أوتيت من عنف، فكانت محاولتي أدعى إلى شد رباطي. وأردت أن أُكره مضطهديّ على التفاهم معي، فرفضوا رفضاً باتّاً، وبعد أن أطالوا في تعذيبي من غير جدوى، اضطروا إلى أن يتريّثوا ليتنفسوا الصعداء، ومع ذلك لم أقطع حبل الرجاء، بل ظللت أقول لنفسي: إن عملاً بلغ هذا الحد من الحمق والغباء، دون سبق اعتقاد ودون مسوّغ، لا يمكن أن يستولي على جميع النوع الإنساني. إن هناك أناساً ذوي إدراك لا يقاسمون المجموع هذا الهذيان، إن هناك أهل صلاح يكرهون الخبث والرياء. إذن لنبحث، فلعلّي واجد، في آخر الأمر، إنساناً، فإذا وجدته فقد أخزيتهم وألقمتهم حجراً. وعبثاً حاولت، فلم أجد هذا الإنسان. إن عصبة هؤلاء عامّة شاملة، لا يُستثنى منهم أحد يرتدّ عن ضلاله، وأنا موقن بأني سأقضي أيامي وسط هذا المنفى المريع، من دون أن أتوصل يوماً إلى الكشف عن هذا السّر الغامض.

في هذه الحال التي يُرثى لها، وبعد ساعات قلق طويلة، استعدت، بدل اليأس الذي كان يبدو أخيراً من نصيبي، صفاء النفس والطمأنينة والسلام والسعادة نفسها، لأن كلّ يوم من أيام حياتي، يذكّرني بلذّة الأمس، ولأني لا أشتهي أياماً أخرى أذوق فيها العذاب.

من أين يجيء هذا الفارق؟ من شيء واحد، ذلك أني تعلمت حمل نير الحاجة دون تذمر، ولأني كنت لاأزال أُكرِه نفسي على التمسك بأمور لا عداد لها، ولأن جميع هذه المماسك التي تمسكت بها، إذ أفلتت مني الواحدة بعد الأخرى، وأصبح أمري متروكاً لنفسي وحدي، استعدتُّ مُستقَرّي، وإذ جاءني الضغط من كلّ جانب، فإني أحتفظ بتوازني لأني، إذ أصبحت غير متعلق بشيء، فإني لا أستند إلّا إلى نفسي.

ولما كنت أثور بحرارة لا مثيل لها، رافعاً صوتي احتجاجاً على رأي الناس، كنت لاأزال أحمل نيره دون أن أتنبه إلى ذلك. إن الناس يريدون أن يحوطُهم بالاحترام من يحترمونه هم، ولذلك فإن الآراء التي كان الناس أو بعضُهم يبدونها في شأني، ما كان يمكن ألا تسترعي اهتمامي ما دام حكمي عليهم أو على بعضهم كان لمصلحتهم.

كنت أرى أن أحكام الجمهور هي على الغالب نزيهة، ولكني لم أكن أرى أن هذه النزاهة نفسها كانت نتيجة المصادفة، إن القواعد التي يبني الناس عليها آراءهم هي وليدة شهواتهم أو من صنع ما ألفوه وتواضعوا عليه، وإنهم، وإن أحسنوا في الحكم، فإن هذه الأحكام الصالحة تولد من مبدأ فاسد كأن يتظاهروا، إذا هم أصابوا فوزاً أو نجاحاً ما، بتكريم رجل، مدفوعين، لا بروح العدالة، ولكن ليتّصفوا بصفة اللامحاباة، وذلك بتجنّيهم، ما طاب لهم التّجني، على الإنسان نفسه، من وجوه أخرى. ولكن لما رأيتهم جميعاً، بعد بحوث طويلة لا طائل تحتها، باقين كلّهم بلا استثناء على مذهبهم الخاطئ غير المعقول، ذلك المذهب الذي استطاع روح شيطاني أن يخترعه، ولما رأيت أن العقل كان، في ما يتعلق بي، مبعداً من جميع الرؤوس، والنزاهة من

جميع القلوب، ولما رأيت أن هناك جيلاً مصاباً بالسَّعَر يستسلم بأكمله وهو مغمض العينين إلى حنق أولئك، إضراراً لشقيّ بائس لم يصنع شراً ولا أراد شراً ولا أنزل ضرراً بأحد، ولما بحثت عبثاً عن إنسان، دعت الحال، آخراً، إلى أن أطفئ مصباحي وأصيح: لم يبقَ هناك من إنسان. عند ذاك، بدأت أرى نفسي وحيداً على الأرض، وأدركت أن معاصريّ ليسوا بالنسبة إليّ سوى كائنات آلية لا يعملون إلّا بمحرك لا يمكنني أن أُقدّر مدى عمله ما لم أعوّل على قوانين الحركة. وما من نيّة ولا هوى يمكن أن أفترض وجوده في أنفسهم كان من شأنه أن يسوّغ سلوكهم حيالي على وجه كان يمكنني أن أفهمه. وهكذا، وإذ أصبحت نيّاتهم بعيدة عن أن تؤثّر في نفسي، فقد صرت لا أرى فيهم كتلاً بشرية تختلف تحرّكاتها وليس لها في نظري أي قيمة أدبية كانت.

في جميع المصائب التي تنزل بنا، تسترعي نظرنا النيّة أكثر مما تسترعيه النتيجة، فإن آجرَّة تسقط من سطح يمكن أن تُحدث فينا جرحاً أبلغ، ولكنها لا تُقلقُنا أكثر مما يُقلقنا حجر ألقي قصداً بيد رامٍ سيّء النية. إن الرمية تخطِئ أحياناً، ولكن النيّة لا تخطئ أبداً، إن الألم المادي هو أقلّ ما يحسُّ به فوراً في الإصابات، فإذا لم يدر البؤساء من يتهمون بمصابهم، اتّجهوا بلومهم إلى القدر الذي يعيرونه جسماً وعيوناً وعقلاً كي يزداد عذابهم، وهكذا فإن المقامر، إذا خسر فاغتاظ تملّكه الحنق ولم يعرف هو على من يحنق. إنّه يتصوّر أن هناك مصيراً يُلاحقه بأذيّته عن قصد كي يعذّبه، وإذ يرى في هذا ما يغذي غضبه، يشتد حماسة ويثور غضباً على العدو الذي خلقه بنفسه. وأما الإنسان الحكيم الذي لا يرى في جميع المصائب التي تدهمه إلّا ضربات تكال له اضطراراً وبلا تبصُّر، فإنه لا يشعر أبداً بهذه الانتفاضات الحمقاء؛ إنه

يصيح ألماً وهو يتعذب ولكن دون هيجان ولا غضب، ولا يحسُّ من الألم الذي هو فريسة له إلّا الإصابة المادية، والضربات التي يتلقاها تحدث ما تحدثه من الجراح في جسمه ولكنها لا تصل إلى قلبه أبداً.

لقد قلنا الكثير مما يجب أن يقال، ولكنّنا لا نكون ألممنا بأطراف الموضوع إذا نحن وقفنا عند هذا الحد. وحسن جداً أن قد حسمنا الداء، ولكننا أبقينا الجذر وتركنا الأصل. إن هذا الجذر ليس في الكائنات الغريبة عنا ولكنه فينا، وها هنا يجدر بنا العمل على استئصاله تماماً. هاك ما أحسست به كلّ الإحساس منذ بدأت أعود إلى نفسي. ولم يكن عقلي ليظهر لي إلّا أموراً لا يرضى بها العقل في جميع التعليلات التي كنت أحاول أن أشرح بها ما يحدث لي، لذلك أدركت أن وسائل كلّ هذا وأسبابه وأدواته هي معدومة الوجود عندي لأني أجهلها ولأنها لا تقبل الشّرح والتعليل. وأدركت أنه يجب علي أن أنظر في جميع تفاصيل ما قدر لي كأنها مجموعة أفعال قدريّة صرفة ينبغي ألّا أفترض فيها تسييراً ولا قصداً ولا علّة أدبية خُلُقيّة، كما يجب عليّ أن أخضع لهذا المصير، من دون أن أُحكِّم العقل ومن دون أن أقاوم، لأن جميع هذا لا فائدة منه ولا طائل تحته وكان كلّ ما يجب عليّ عمله أيضاً على الأرض هو أن أُعدّ نفسي فيها كائناً سلبياً صرفاً بحيث لا ينبغي لي أن أُبلي وأُفني، في سبيل الصّمود لمصيري، القوةَ التي بقيت لي والتي تمكنني من معاناة هذا المصير، فكنت أقول لنفسي: إن عقلي وقلبي يرضيان بهذا، ومع ذلك، كنت أشعر أن هذا القلب لايزال يتذمّر، فما مصدر هذا التذمّر؟ كنت أبحث عنه فوجدته: إنه كان ناشئاً عن حبّ الذات وقد ثارت ثائرته على العقل بعد أن استنكر أعمال الناس.

ولم يكن من السّهل التوصّل إلى هذا الاكتشاف قدر ما يظن، لأن البريء المضطهد يحسب أن حبّه الخالص للعدالة مدعاة فخار لنفسه. ولكن الينبوع الحقيقي، إذا عُرف معرفة تامة، فمن السّهل أن ينضب ماؤه أو أن يُحوَّل عن مجراه. واحترام الذات هو أكبر محرّك للنفوس الأبية، وحبّ الذات، الخصيب بأوهامه يتقنّع ويحمل على الاعتقاد أنه هو ذلك الاحترام، ولكن إذا ما اكتشف الغشّ، آخر الأمر، وأصبح حبّ الذات لا يمكنه أن يختبئ، غدا هذا الحبّ مما لا يُخشى بأسه. وإذا كان كتْمُ أنفاسه أمراً شاقّاً، فإن قمعه على الأقل سهل ميسور.

لم يكن لي قطّ ميل إلى حبّ الذات، ولكن هذا الهوى المصطنع أثار هوسي في العالم، ولاسيما عندما أصبحت مؤلفاً، وربما كان لي من حبّ الذات أقلّ من غيري، ولكن كان عندي منه مقدار كبير. إن الدروس المختلفة التي تلقيتها لم تلبث أن حصرته في حدوده الأولى، لقد بدأ يثور على الظلم، ولكنه لم يلبث أن استهان به. وعندما خلا بنفسي وقطع العلاقات الخارجية التي تلح به في طلباته إذ هو يرفض الموازنات والتفضيلات، ارتضى بأن أكون أنا ذا طيبة لنفسي، وعندئذ، وإذ عدت أنا "حبّ نفسي"، رجع إلى نظام الطبيعة وأنقذني من نير رأي الناس.

ومن ثَمَّ فقد استعدت سلام النفس وما يقرب من السعادة. ففي أيّ حالة كان عليها المرء، فشقاؤه الدائم ناجم عن احترامه لنفسه، فإذا سكت وتكلّم العقل، فإنه يُعزّينا عن جميع المصائب التي لا يُناط بنا اجتنابها، بل إنه يُلاشي تلك المصائب إذا كانت إصابتها لا تتجه إلينا في الحال، لأنه من الأكيد أننا نجتنب أوجع إصاباتها بإهمالنا الاهتمام بها.

إنها ليست بذات بال لمن لا يفكر فيها، إن الإهانات وأعمال الانتقام والظلم والشتائم وهدر الحقوق، وكلّ هذه لا يؤبه لها لدى الإنسان الذي لا يرى في المصائب التي يقاسيها إلّا المصيبة نفسها لا النيّة، والذي لا تتعلق منزلته في احترامه لنفسه بالمنزلة التي يطيب لغيره أن ينزله فيها. وأياً كانت النّظرة التي يودُّ الناس أن ينظروا إليّ بها، فلا يمكنهم أن يبدلوا شخصي، ورغم مقدراتهم وجميع وسائلهم الخفيّة، سأظلّ، مهما بذلوه من جهد، ورغم أنوفهم، ما أنا وكما أنا. صحيح أن موقفهم مني يؤثّر في حالتي الحقيقية، فإن الحاجز الذي وضعوه بيني وبينهم يحرمني كلّ مورد قوت وإسعاف في شيخوختي وحاجاتي. هذا الحاجز يجعل المال غير نافع لي لأنه لا يستطيع أن يمدّني بالخدمات اللازمة لي. لم يبق بيننا معاملة ولا تعاون متبادل ولا علاقات، وإذ أصبحت أنا وحدي بينهم، فليس لي من مورد سواي، وهذا المورد ضئيل جداً في سنّي وفي الحال التي أنا فيها. هذه البلايا هي بلا شكّ كبيرة، ولكنها، في ما يتعلق بي، قد أضاعت كلّ قوّتها منذ اليوم الذي عرفتُ فيه أن أتحملها من دون أن تثور ثائرتي من وقعها. إن المواقف التي تبدو فيها الحاجة واضحة حقيقةً هي نادرة، والتبصّر والمخيلة يجعلان هذه المواقف متعددة، وبتواصل هذه العواطف يتولّد القلق ويتوالى، وبهما يحمل المرء التعاسة إلى نفسه. وأما أنا فإنّ يقيني بأني سأتعذب غداً، لا ينغّص عيشي بل يكفيني ألّا أتعذب اليوم لأكون ساكن البال. وأنا لا أتأثر أبداً بالألم الذي أتوقّعه ولكن أتأثّر من الألم الذي أُحسّه فقط، وهذا ما يلطّف الشّعور به إلى أدنى حد. وإذ أراني وحدي مريضاً، مخذولاً، منطرحاً على فراشي، فقد يميتني البرد والفاقة والجوع، من دون أن يشاركني في ألمي مشارك، ولكن أيّ أهمية لهذا

إذا لم أتألم أنا لنفسي وإذا لم أتأثر إلّا قليلاً من مصيري، أياً كان أمره، أليس سيان عندي، وخصوصاً أني بلغت هذا العمر، أن تعلمت رؤية الحياة والموت، والمرض والصّحة، والغنى والفاقة، والمجد والتشنيع. كلّ ذلك باللامبالاة نفسها. إن جميع الشيوخ الآخرين تراهم مضطربي البال يُقلِقُهم كلّ شيء، وأما أنا فلا أجزع لشيء ولا أبالي بها يحدث أياً كان، وهذه اللامبالاة ليست وليدة حكمتي ولكنها صنع أعدائي، فيجدر بي إذن أن أستفيد من هذه الميزات، تعويضاً لي عن ضروب الأذى التي ينزلونها بي. إنهم، إذ جعلوني لا أحسُّ بالبأساء، أسدوا إليّ فضلاً أعظم مما لو كانوا قد جنّبوني ضرباتها، وإني، إذ أصبحت لا أعانيها، ففي إمكاني أن أظلّ أخشاها، على حين أني لو قهرتها لأمسيت لا أخافها أبداً.

هذا الاستعداد يسلمني، وسط تقلّبات حياتي، إلى التهاون الذي هو طبيعة في، كما لو كنت في سعة من العيش كاملة، وذلك عدا الأوقات القصيرة التي توقظني فيها من غفلتي، لمعاناتي ضروب القلق، تلك الأشياء التي تقع عليها عيناي. وفي ما بقي من الوقت، وإذ أراني وقد أسلمَتني ميولي إلى المودات التي تجتذبني، لايزال قلبي يتغذى بتلك العواطف التي خلق لها، على حين أني أنعم وأتلذذ بتلك المودات مع كائنات خيالية تخلق هذه الكائنات وتتقاسمها كما لو كانت موجودة حقيقة. أجل إنها موجودة في عرفي، أنا الذي خلقها، ولست أخشى منها خيانة ولا خذلاناً. إنها ستدوم ما دامت مصائبي وهي تكفي لتنسيني هذه المصائب.

كلّ شيء يعود بي إلى الحياة السّعيدة الحلوة التي خلقت لها. إني أُمضي

ثلاثة أرباع حياتي إما مهتمّاً بأمور تثقيفيّة ومستحبّة أسلّمها أفكاري وحواسّي بلذة، وإما مع بنات تخيُّلاتي التي كوّنتها وَفق هوى قلبي، تلك التخيّلات التي تغذي المعاشرة عواطفها، وإما معي وحدي وأنا راضٍ عن نفسي، ممتلئ بتلك السعادة التي أحسُّ بأني أستحقّها. أما ما يعمل كلّ شيء في جميع هذا فهو حبّ نفس لأن حبّ الذات لا شأن له بهذا. ولم يكن الأمر كذلك في ما يتعلّق بهذه الأوقات المكربة التي لاأزال أمضيها وسط الناس، وأنا ألعوبة مداعباتهم الغادرة ومدائحهم المفرطة في المبالغة، والصادرة عن هزئهم اللاذع ودهائهم المعسول، وأياً كان المسلك الذي أمكنني سلوكه، فإن حبّ الذات يقوم بدوره، إنّ البغضاء والعداء اللذين أستشفّهما في القلوب من خلال هذا الغلاف الغليظ يمزّقان قلبي ألماً، والفكرة التي تحملني على الاعتقاد أني أعامل معاملة المخدوع، تضيف إلّي هذا الألم حنقاً صبيانياً وليد حبِّ ذات أشعر بسخافته، ولكني أصبحت عاجزاً عن التغلب عليه. إن المجهودات التي بذلتها لأتعود اقتحام هذه النظرات المهينة المستهزئة، لا تُصدّق، لقد مررت مئة مرة بالمتنزّهات العموميّة وبالأماكن التي يكثر التردُّد إليها بقصد أن أتعوّد هذه المداعبات المهينة، ولكن على غير جدوى، فإن جميع مجهوداتي المُعيية، ومحاولاتي التي ذهبت سدى تركتني كما كنت من قبل، سهل الاضطراب والتأثّر والتألّم[2].

---

(2) إننا نذهب هنا إلى ما ذهبت إليه السيدة روسيلي مديرة مكتبة نيوشاتل سابقاً، فإن كلمة بورد (Bordes) هي اصطلاح محلي، وكلمة أضواء "التبن" يقصد بها تلك الأضواء التي تشتعل عالياً في أول أحد من آحاد الصوم.

وهذه العادة كانت تحمل الناس على ابتداع مداعبات وسخريات ترمي إلى النيل من الأشخاص المكروهين.

وإذا كنت منقاداً إلى حواسّي رغم جهدي، فإني لم أعرف قط أن أثبت أمام انطباعاتها، وطول الوقت الذي فيه يؤثّر الموضوع بهذه الحواس، لاينفكّ قلبي متأثراً بها، ولكن هذه المودات العابرة لا تدوم إلا بمقدار دوام الشّعور الذي يسبّبها. إن وجود الرجل الحقود أمامي يؤثر فيّ تأثيراً عنيفاً. ولكن لا يكاد يختفي هو حتى يزول الانطباع. وفي اللحظة التي أعود لا أراه فيها، لا أفكر فيه أبداً.

ومع علمي بأنه سيتابع إيذائي، فإنه لا يسعني أن أهتمّ به. إن الألم الذي لا أُحسّه في الحاضر، لا يؤثّر فيّ بأيّ شكل كان، وإنّ المضطهد الذي لا أراه أبداً هو صفر عندي لا وجود له، إني أتبيّن الميزة التي يعطاها هؤلاء الذين بيدهم تقرير مصيري، ليقرروا هذا المصير كما طاب لهم، فإنني أفضّل أن يُعذّبوني دون مقاومة، على أن اضطّر إلى التفكير فيهم اتقاء لضرباتهم.

إن تأثيرات حواسي في قلبي هي وحدها عذاب حياتي. وفي اليوم الذي لا أرى فيه أحداً، ينقطع تفكيري في مصيري فأغدو لا أحسّ به ولا أتعذب، وأمسي سعيداً مسروراً، من دون تحوّل عن فكر أو مانع يمنع. إني قليلاً ما أنجو من إصابات مؤثرة، وفي السّاعة التي أكون أبعد الناس عن التفكير فيها، ألمح نظرة شؤم أو أسمع كلمة تقطر سُمّاً أو ألتقي بسيء قصد فيكفي ذلك ليملأ نفسي قلقاً واضطراباً، وكلّ ما يمكنني عمله في مثل هذه الأحوال هو أن أنسى في الحال، وأن ألجأ إلى الفرار. إن اضطراب قلبي يزول بزوال الشيء الذي سبّبه، فإذا انفردت بنفسي عادت إليّ السّكينة، وإذا كان هناك ما يسبب لي القلق فهو أن ألقى في طريقي موضوع ألم جديد. ذلك هو همّي الوحيد ولكنه يكفي

لأن يفسدَ عليّ سعادتي. إني أقيم في وسط باريس، فإذا برحت منزلي حننت شوقاً إلى البرية والوحدة، ولكن لا بدّ من السير في طلبها بعيداً جداً بحيث أجد في طريقي، قبل أن أستطيع التنفس على هواي، أشياء لا عدّ لها تملأ نفسي انقباضاً، وهكذا يضيع نصف النهار وأنا ضيّق الصدر قبل أن أصل إلى الملجأ الذي أسير في طلبه، وكم ذا أكون سعيداً لو أنهم تركوني، على الأقل، أواصل طريقي. إن الوقت الذي أهرب فيه من موكب الأشرار لذيذ محبّب إلى قلبي، وحالما أرى نفسي في ظلال الأشجار وفي وسط الخضراء، أظنّ أني في الفردوس الأرضي، وأتذوق لذة داخلية محتدمة كما لو أني كنت أسعد الناس.

أذكر جيداً أنه في خلال أيام رخائي القصيرة، كانت هذه النزهات الانفرادية التي أستطيبها الآن، تبدو لي مُملة تفِهة. وإذا حدث أن كنت في البريّة عند أحد الناس، كانت حاجتي إلى الرياضة وإلى استنشاق الهواء الطلق تدفعني إلى الخروج وحدي والانسلال كأحد اللصوص لأتنزّه في الحديقة أو في البرية، ولكني، بدلاً من أن أجد هناك السكينة التي تخيّم عليها السعادة والتي كنت أتذوّقها، كنت أحمل معي إلى قاعة الاستقبال اضطراب أفكار لا طائل تحتها تشغل بالي. وكان ذكر الناس الذين تركتهم يتبعني في الوحدة، وأصداء حبِّ الذات وضوضاء العالم تُكدِّر في عيني صفاء لون الغياض، وتُعكِّر هدوء العزلة. وعبثاً كنت أحاول الفرار إلى أعماق الغابات، فإن جموعاً مزعجة كانت تتبعني إلى كلّ مكان، وتحجب عني الطبيعة كلّها. ولم أهتدِ ثانية إلى جميع مفاتنها إلّا بعد أن تجرّدتُ من الشّهوات الاجتماعية ومواكبها الكئيبة.

ولما اقتنعت بعجزي عن قمع هذه الحركات الأولى اللاإرادية

أقلعت عن كلّ مجهود أبذله في هذا السّبيل. إني لدى كلّ أصابة، أتركُ دمي يغلي في عروقي، والغضب والخيال يستوليان على حواسي، وأتنزّل للطبيعة عن هذا الانفجار الأول الذي لا تملك جميع قواي أن توقِفَه، ولا أن تستمهلَه، فلا أحاول إلّا أن أوقف عواقب هذا الانفجار قبل أن يُنتِج مفعولاً. إن تطاير الشّرر من العينين، والنار المضطرمة في الوجه، وارتجاف الأعضاء، والاختلاجات الخانقة، كلّ هذا عائد إلى الطبيعة المادية وحدها، واللجوء إلى القياس والبرهان لا يجدي نفعاً، ولكن بعد أن يترك الإنسان لطبيعته أوّل انفجار، يستطيع هو أن يعود سيّد نفسه بأن يستعيد شيئاً فشيئاً حواسّه. هذا ما حاولت عمله مدةً طويلة، ولكن بقيَت محاولاتي من غير فائدة زمناً طويلاً، ثم أصبحت أحسن توفيقاً آخر الأمر، وإذ أقلعت عن استعمال قوّتي في مقاومة لا طائل تحتها، أترقّب الوقت الذي أستطيع أن أتغلب فيه، تاركاً لعقلي العمل، لأنه لا يكلّمني إلّا عندما يستطيع أن يلقى أذناً واعية، ولكن ويحي، ماذا أقول! عقلي؟ إني أكون مخطئاً جدّ الخطأ لو شرّفته بأن نسبت إليه هذا الفوز إذ لا نصيب له فيه. كلّ هذا يجيء أيضاً من طبيعة قلب تهزّه ريح شديدة، ولكنه لا يلبث أن يهدأ حالما تسكن الريح. تلك هي طبيعتي المُتّقدة التي تهزّني. وتلك هي طبيعتي المتراخية التي تُهدِّئني. إني أتخلّى طائعاً عن جميع النوابض الحاضرة، وكلّ صدمة تكسبني حركة عنيفة، قصيرة، فإذا زالت الصدمة وقفت الحركة، فما من شيء قابل الانتقال يطول أمره عندي.

وجميع أحداث الدهر وأمور الناس لا تأثير لها في رجل بنيته كمثل بنيتي، وما من تأثير تحدثه لي الهموم المستمرّة إلّا إذا تجدّدت انطباعاتها لحظة بعد لحظة. لأن الفترات التي تنقضي ما بين همٍّ وهمّ،

مهما كانت قصيرة، تكفي لأن ترجعني إلى نفسي. أنا هو الذي يرضي الناس ما داموا قادرين على أن يؤثروا في حواسي. فإذا انقضت هذه الفترة، أصبحت من جديد ذاك الذي أرادت الطبيعة أن أكون.

هذه هي، مهما أمكنهم أن يعملوا، حالتي الأكثر ثباتاً والحالة التي بها أتذوّق، رغم أنف القدر، السّعادة التي أشعر بأني قد خلقت لها. لقد وصفت هذه الحال في هاجس من هواجسي، فهي تلائمني جدّ الملائمة، حتى إنني لا أتمنى إلّا أن تطول مدّتها ولا أخشى إلّا أن أراها مكدّرة معكّرة. إن الضرر الذي أنزله الناس بي لا يمسّني بوجه من الوجوه. فإن خشيتي مما يمكنهم أن ينزلوه من ضرر هي وحدها جديرة بأن تملأ نفسي اضطراباً. ولقد أيقنت بأنهم أصبحوا خِلواً من مأخذ جديد يتيح لهم أن يؤثّروا فيّ بعاطفة مستمرّة، ولذلك أستهزِئ بجميع دسائسهم، وأتمتع بنفسي رغم أنوفهم.

النزهة التاسعة

السّعادة حالة مستقرة يبدو أنها لم تجعل للإنسان في هذه الحياة الدنيا. فكلّ شيء هو على الأرض في مدّ متواصل لا يجيز لشيء أن يتخذ شكلاً ثابتاً. كلّ شيء يتبدل حولنا ونحن أنفسنا نتغير، وما من أحد يستطيع أن يجزم أنه سيُحِبُّ غداً ما أحبّه اليوم. وهكذا فإن جميع المشاريع من أجل السعادة على الأرض هي أوهام. فلنستفد من فرح الرّوح إذا تمّ لنا، ولنحذر من إبعاده عنا بإرادتنا، ولكن لا نضَعنَّ المشروعات لنستديمه، لأن هذه المشروعات هي من الجنون المحض. لقد رأيت قليلاً من الناس السّعداء، وربما لم أرَ أحداً، لكني كثيراً ما رأيت قلوباً فرحة، وأكثر ما استوقف نظري بين جميع الأشياء التي رأيتها هو ما أفرحني أنا، وأظن أن هذا نتيجة طبيعية لسلطان الإحساسات الداخلية على عواطفي. والسعادة ليست لها مسحة خارجية تدل عليها. فإذا شئت أن تعرفها وجب أن تقرأ في قلب الرّجل السّعيد، وأما الرّضا فيُقرأ في العيون والهيئة وفي نبرة الصوت والمِشية ويسري ويتنقّل إلى من يراه. فهل هناك من لذّة أعذب من رؤية

شعب بأكمله يستسلم إلى الأفراح في يوم عيد، ورؤية قلوب تطفح بشراً وتتفتح تحت أشعة السّرور الذي يمرّ سريعاً مُتّقداً من خلال غمائم الحياة؟

منذ ثلاثة أيام زارني بحماس فائق السيد ب. ليُطلعني على مقالة وضعها السيد دالامبر تقريظاً للسيدة جوفران ومهّد لقراءته بضحكاتٍ طويلةٍ استهزاءً وذلك بإفراطه في استعمال الكلمات المولّدة وتصنّعه في أسلوب الكتابة. بدأ في القراءة وهو مستمرّ في تهكّمه وأنا مصغٍ إليه وأمارات الجدّ تبدو عليّ، ولكنّه لم يلبث أن أقلع عن الضّحك. وكان موضوع المقال يدور على السّرور الذي تشعر به السيدة جوفران عندما ترى الصغار وتحادثهم. وقد استخرج المؤلف من ذلك الاستعداد النفسيّ دليلاً على طيبة العنصر، ولكنه لم يقف عند هذا الحدّ، بل إنه اتّهم، بفساد الطبيعة وبالرداءة، جميع الذين لا يشاطرونه ميله إلى حدّ أنه ذهب إلى القول بأنهم لو استفتوا في هذا الموضوع أولئك الذين يجرّونهم إلى المشانق أو إلى التّعذيب، لأفتوا كلُّهم بأنهم لم يكونوا قد أحبّوا الصبية. فهذه التأكيدات تركت به أثراً شاذاً في المواضع التي أثبتت فيها، فعلى افتراض أن كلّ هذا كان صحيحاً، فهل كان من مناسبة لقول ما قيل، وهل كان من الضروريّ أن يلطّخ تقريظ سيدة محترمة بصور التعذيب واللصوص؟ لقد كان من السّهل عليّ أن أفهم سبب هذا التصنُّع المقيت. وعندما انتهى السيد ب. من قراءته، وعلى حين كنت أبيّن ما بدا لي حسناً في هذا التقريظ، أردفت أقول: إن المؤلف في كتابته لهذا التقريظ، كان في قلبه من الصّداقة أقلّ مما كان فيه من البغضاء.

وفي الغداة، إذ كان الطقس على القدر الكافي من الصّحو، ولو

أنه كان بارداً، سرت أتمشى حتى المدرسة الحربية، متوقعاً أن أجد هناك شيئاً من الطّحالب قد تفتحت أزهارها. وفي أثناء مسيري كنت أحلم بزيارة الأمس وبمقالة السيد "دالامبر" لأني كنت أعتقد كلّ الاعتقاد أن صحيفة هذه السلسلة من الحوادث، لم تكن قد وضعت بلا قصد حيث وضعت، وأن اختياري دون غيري لإحضار هذا المؤلف، أنا الذي كانوا يُخفون عنه كلّ شيء، يكفيني للاستدلال على مرمى هذه الرسالة. لقد كنت وضعت أطفالي في ملجأ اللقطاء، فكان في هذا الكفاية لكي يُقنِّعوني بقناع والد مجرّد من العواطف الطبيعية. ومن هناك توسّعوا في هذه الفكرة وحبّبوها إلى أنفسهم، فتوصّلوا شيئاً فشيئاً إلى هذه النتيجة وهي أنني أكره أبنائي. وإذ تتبعت بالفكر سلسلة هذه التدرُّجات، لم يسعني إلّا الإعجاب بتلك اللباقة التي بدلت بها صناعة البشر الأبيض بالأسود، لأني لا أظنُّ أبداً أن رجلاً ما قد أمكنه أن يحبَّ أكثر مني أن يرى صغاراً يمرحون ويلعبون معاً، ولكم وقفت في الشوارع والمنتزهات أرمق مكرهم البريء وألاعيبهم باهتمام لا يشاركني فيه أحد. وفي اليوم نفسه الذي جاء فيه السيد ب. وقبل زيارته بساعة، نعمت بزيارة ابنَي السيّد سوسوا أصغر أبناء مضيفي، وربما كان أكبرهما سناً يبلغ من العمر سبع سنوات. لقد أقبلا يقبلانني بشوق، فبادلتهما بحنان ولاطفتهما، وعلى الرغم من التفاوت في السّن فقد بدا لي أنهما يجدان سروراً في صحبتي. وأما أنا فقد طربت لما رأيت أن سحنتي الهرمة لم تنفّرهما مني، فإن ثانيهما في العمر كان يقبل عليّ حتى إني حسبت نفسي قد عدت طفلاً أكثر منهما، وأحسست أني متعلق بذلك الولد المفضّل عندي على غيره. وقد رأيته ينصرف بأسف يعادل أسفي، كما لو كان ابناً حقيقياً لي.

أنا أفهم أن الملامة التي وُجِّهت إليّ بأني وضعت صغاري في ملجأ اللقطاء[1] قد تحوّلت بطريقة من طرق التعبير إلى وصفي بأني أب مجرد عن العواطف الإنسانية، وبأني أكره الأولاد، على أنه مما لا شكّ فيه أن خوفي عليهم من مصير أسوأ ألف مرّة ولا مهرب منه، هو الذي حداني على اتخاذ هذا القرار. ولقد كنت أكثر مبالاة بما سيصير إليه أمرهم كما كنت عاجزاً عن أن أقوم بتربيتهم بنفسي، لذلك كان يجب عليّ، في هذه الحال، ألّا أكل أمر تربيتهم إلى والدتهم التي أفسدتهم، ولا إلى أسرتها التي كانت جعلت منهم مسوخاً. إنني أرتجف كلّما فكرت في هذا الأمر، فإن ما لقيه فلان لدى فلان من إفساد وسوء معاملة، ليس شيئاً يذكر، إذا قيس عندي، بمعاملة الأم وأسرتها، والفخاخ التي نصبوها لي في ما بعد تثبت لي أنهم كانوا قد عقدوا العزم على ذلك. وحقيقة الأمر أني كنت أبعد من أن أتوقع عندئذ هذه الدسائس المريعة؛ ولكني كنت أعلم أن أقل التربيات ضرراً بهم وأقل خطراً كانت تربيتهم عند اللقطاء فوضعتهم في ذلك الملجأ. هذا ولا شكّ في أني كنت ألجأ إلى هذا الإجراء لو دعت الحال إلى اتخاذه مرة ثانية. ثم إني أعرف جيداً أنه ما من والد كان يكون أكثر حناناً وعطفاً عليهم لو أن العادة والألفة ساعدتا الطبيعة.

وإذا كنت قد اكتسبت بعض التقدم في معرفة قلب الإنسان، فإني

---

(1) هناك عبارة من أقوال السيدة دو جوفروا بدت لجان جاك روسو في غير محلّها. أنها قالت: لو سئل جميع البؤساء الذين سيُعدمون عقاباً لهم عن الجرائم التي ارتكبوها: "هل أحببتم الصغار؟" فإني موقنة أنهم سيجيبون، دون شكّ: "لا". هذا الإيضاح الخاص يلقي ضوءاً مفاجئاً في نفس روسو. أنه يرى فيه إشارة موجعة إلى حالته الشخصية.

مدين بهذه المعرفة إلى اللذة التي أجدها برؤية الأولاد وملاحظتهم، وهذه اللذة نفسها التي كنت أحسها في صباي قد جعلت هذا التقدّم بطيئاً، لأني كنت ألاعب الأولاد بسرور تجاوز كلّ حدٍّ حتى إني لم أفكر في دراستهم، ولكني لما أدركتني الشيخوخة فرأيت أن سحنتي الهرمة تنفّرهم، امتنعت عن مضايقتهم، وفضلت أن أحرم نفسي هذا السرور، على أن أعكر صفو فرحهم. وإذ رأيتني سعيداً بأن أرضي نفسي بتتبع ألعابهم وملاحظة حيلهم، لقيت تعويضاً عن تضحيتي بما استفدته من المعارف التي أكسبتني إياها هذه الملاحظات بشأن حركات الطبيعة التي لا يعرف علماؤنا شيئاً عنها والتي هي أولى هذه الحركات وأصدقها. وقد أقمت في كتبي الدليل على أني اهتممت بهذا البحث بعناية فائقة، ولو أني لم أتولَّه، ومن الحقّ أن يقال إنّ أغرب شيء وأبعده عن التّصديق هو أن كتابَيّ الهيلويز والإميل كانا من تأليف رجل لا يحبُّ الصّغار.

لم أوتَ قطّ حضور الذّهن وسرعة البديهة ولا سهولة الكلام، ولكن منذ نزلت بي المصائب، تلعثم لساني وازداد ارتباك خواطري، والفكرة والكلمة الصالحة للاستعمال تغيبان أيضاً عني، ولا شيء يستدعي تمييزاً أكثر توفيقاً، واختيار عبارات أصحّ من حديث الصغار. والذي يزيدني ارتباكاً هو إصغاء السّامعين لي والتأويلات والوزن الذي يقيمونه لكلّ ما يصدر عن رجل، إذا كتب عن الصغار ولهم، يفترض أنه لا يخاطبهم إلّا بلغة هاتف الغيب فهذا الضّنك الشديد والعجز يزعجاني ويحيّراني حتى إني أشعر بارتياح أمام ملك متوّج أكثر مما أشعر بذلك أمام طفل يجب أن أتولى تبديل ثيابه.

وهناك محذور آخر يحملني الآن على أن أظلّ بعيداً عنهم، فمنذ حلول المصائب بي تسرّني رؤيتهم مثل قبل، ولكنني أصبحت ولا دالّة لي عليهم. إن الأطفال لا يحبّون الشيخوخة، لأن منظر الطبيعة المتداعية بشع في أعينهم، وتقزُّزهم الذي ألحظه يملأ نفسي ألماً، وأن أمتنع عن الإدلال عليهم أفضل عندي من أن أسبب لهم ازعاجاً وتقزّزاً، هذا السبب، الذي لا يؤثر إلا في النفوس المحبة حقاً، لا قيمة له عند الفلاسفة، فإن السيدة جوفران لا تبالي بأن يجد الصغار لذّةً معها على شرط أن تجد هي مثل هذه اللذة. ولكن هذه اللذة، في عرفي، هي أكثر من معدومة الوجود، فهي سلبية عندما لا تكون متبادلة، وها إني أصبحت في سنٍّ وفي حال لا أرى فيهما قلبَ صغيرٍ يزدهر معي. ولو كان يمكن أن يتمَّ لي هذا إلى اليوم، فإن هذه اللذة التي أمست نادرة ستكون، عندي، أشد اتقاداً كما أحسست بذلك في صباح اليوم الغابر، أجل لقد أحسستها بتذوّقي لذّة مداعبة صغار السيد سوسوا، لا فقط لأني لم أكن أتهيّب الخادمة التي تقودهم، بل أيضاً لأن أمارات الفرح كانت تبدو عليهم، ولأنهم لم يضجروا وهم معي.

واأسفاه كلّ الأسف! لو كان لايزال لدي بعض أويقات إدلال تصدر عن قلب، وإن كان لصغير لايزال يلبس سترة! بل لو كان في استطاعتي أن أقرأ أيضاً في بعض العيون الفرح بأن أكون مع نفسي. فكم كانت تعيضني هذه المناجيات القصيرة العذبة، مناجيات قلبي، تعيضني عن شرور وآلام، واأسفاه! ما كنت مضطراً إلى أن أبحث ما بين العجماوات عن نظرة عطف يأباها عليّ الناس. ويمكنني أن أتبيّن مدى ما وصلت إليه بالاستناد إلى ذكريات عزيزة عليّ لا أحفظ منها إلّا واحدة كدت أنساها لولا حالتي النفسيّة، فهي تصوّر الانطباع الذي

تركته في نفسي، وتدل على ما أعانيه من بؤس. ذهبت منذ سنتين لأتنزّه في ضواحي "لانوفال فرانس" وواصلت سيري متجهاً إلى اليسار، قاصداً أن أدور حول "مونمارتر". فاخترت قرية "كلينيانكور"، وكنت ساهياً حالما لا ألتفت إلى ما حولي، وإذ بي أحسُّ بيدين تمسكان بركبتي، فالتفتُّ فإذا أنا بصغير يرواح عمره بين الخمس السنوات والسّتّ يشدُّ على ركبتيّ بجميع قواه، وهو يحدّق إليَّ بهيئة تدلُّ على أنّه ذو دالة علي، فاهتزّت جوانحي وأخذت أقول: كم كنت أودُّ أن ألقى مثل هذه المعاملة ممن هم أبنائي. ثم ضممت الصغير بين ذراعي وقبلته مراراً بشوق وواصلت مسيري. كنت أحسُّ وأنا أمشي بأن هناك شيئاً أفتقر إليه. فعدت أدراجي وأنا ألوم نفسي لابتعادي عن هذا الصغير بغتة لأني كنت أعتقد أن ما عمله من غير داعٍ هو نوع من الإلهام كان يجب ألّا أستهين به. وأخيراً تخليت عن هذا الميل وعدت من حيث أتيت، وأقبلت على الصغير وأخذت أقبّله من جديد، ثم أعطيته ما يمكنه أن يشتري به شيئاً من الحلوى من بائع كان يمرُّ مصادفة من هناك. ثم استدرجته إلى الكلام فسألته أين كان والده، فدلّني على رجل يصلح البراميل – وكنت على وشك الاتجاه نحو الوالد – وإذا بي أرى رجلاً آخر بشع السُّحنة، يبدو أنه من جواسيسه، قد سبقني وأخذ يهمس في أذنه، فرأيت حينئذٍ صانع البراميل يجحظني بأنظار غير ودية، فانقبض صدري للحالة، وتركت الأب والابن وأسرعت وأنا في اضطراب غير مستحب بدّل جميع ما كنت قد نويت.

ومع ذلك، أحسست مراراً ومنذ ذلك الحين أن ما نويت كان يتجدد. فلقد عدت إلى المرور بقرية "كلينيانكور" مرات عديدة على أمل أن أرى هذا الصغير مرة أخرى، ولكني لم أرَ الابن ولا الأب بعد

ذلك، ولم أحتفظ من هذا اللقاء إلّا بذكرى حارّة باقية ممتزجة دائماً بالعذوبة والكآبة كمثل جميع الانفعالات التي تنفذ أحياناً إلى قلبي، ثم لا يلبث ذلك القلب أن يندمل جرحه بردّ فعل أليم.

وكلّ شيء تفقده تستعيض عنه بشيء تجده. فإذا كانت مسرّاتي نادرة قصيرة، فإني أتذوَّقها مع ذلك عند عودتها بحرارة هي أشد منها عند ملازمتها لي، فأردِّدها في ذهني بذكريات متلاحقة، ومهما كانت نادرة فإني قد أكون سعيداً بها أكثر مني في أيام رخائي، لو أن هذه الذّكريات كانت خالصة ومن غير شائبة. ففي أقصى ساعات البؤس يُعدُّ القليل غنىً. وإن صُعلوكاً يعثُر على الدّرهم ليتأثّر بهذه اللقطة أكثر مما يتأثّر غنيٌّ وجد كيس ذهب. وقد يهزأ بي الهازئون لو أنهم رأوا في نفسي الانطباع الذي تخلّفه فيها أقلّ لذّة من هذا النوع يمكنني أن أسترقها من يقظة مضطهدة. إن إحدى أخريات هذه الملذّات التي سنحت لي منذ أربع سنوات أو خمس، لا أذكرها يوماً إلّا أحسست بالارتياح والطرب، لأني عرفت أن أستفيد منها على أحسن وجه.

في ذات يوم أحد ذهبت أنا وزوجتي لنتناول طعام الغداء عند بوابة "مايو". وبعد الغداء، اجتزنا بغابة بولونيا حتى وصلنا إلى ناحية "موييت"، وهناك جلسنا على بساط من العشب في الظّلّ منتظرين ميل الشمس نحو المغيب كي نعود بعد ذاك رويداً رويداً إلى "باسي"، وإذا بنحو من عشرين فتاة صغيرة يقودهنّ راهبات قد أقبلن يتنزّهن، فجلس بعضهن على الأرض، وأخذ بعضهن الأخر يلهو ويلعب على مقربة منا. وفي أثناء لعبهن مرَّ بائع ألعاب وحلويات يحمل طبلاً ويعرض ألعابه وحلواه، وكانت بينهن فتاتان أو ثلاث يحملن شيئاً من

المال، فطلبن السّماح لهن بأن يشتركن في اللعب، وبينما كانت المدبّرة مترددة في إجابة طلبهنّ، إذ ناديت الرجل وقلت له: لتختر كلّ منهنّ ما شاءت، وأنا أقوم بتأدية ما يطلب مني. فهذه الكلمة ملأت قلوبهنّ فرحاً لا يقدر بثمن.

ولما رأيت أنّهنّ يندفعن إلى اللعب ولكن بحياء، صففتهنّ كلّهن الواحدة وراء الأخرى ودفعتهنّ إلى أن يسحبن أرقام اليانصيب كلّ منهنّ في دورها، وأشرت إلى البائع أن يلجأ إلى طريقة تمكّن كلاً من هؤلاء الفتيات من كسب لعبة أو قطعة من الحلوى. وهكذا، وَفقاً لهذا الترتيب، وزّع على الفتيات حوالي مئة قطعة من الحلوى، مما أدخل السرور إلى قلوبهنّ جميعاً وجعل الفرح كاملاً شاملاً.

ثم رجوت الراهبة أن ترضى، في دورها، أن تسحب رقمها وأنا متردِّد خشية أن تأبى طلبي، فرضيت بذلك عن طيب خاطر، وسحبت رقمها وأخذت ما وقع في نصيبها. فسرّني منها هذا القبول، ورأيت فيه شيئاً من حسن الأدب مما لم أعهده عند أولئك المتصنّعات. وفي أثناء هذه العمليات وقع شجارٌ بين الصّغيرات فرفعن أمرهنّ إلى محكمتي، فأقبلن يترافقن في دعاويهنّ مما مكنني أن ألاحظ أنهنّ وإن كنَّ بشعات الشّكل، فإن اللطف الذي أظهره بعضهنّ كاد ينسيني هذه البشاعة.

وافترقنا بعد وقت وكلّنا مسرور من صاحبه. وكانت هذه الأمسية إحدى تلك الأمسيات التي أحفظ ذكراها بسرور وارتياح، على أن هذا العيد لم يكن مكلفاً فإنه في مقابل ثلاثين درهماً أنفقتها على أكبر تقدير، جنيت كسباً يساوي مئة ريال من السُّرور، لأن السُّرور الحقيقي لا يقاس بالأكلاف، وإن الفرح هو صديق الدّرهم أكثر مما هو

صديق الدينار، وعدت مراراً إلى ذلك المكان في الساعات التي كنت أتوقع فيها مقابلتهن، على أمل عودة لقائهن فلم يتحقق أملي.

هذا يذكرني بتسلية أخرى من اللون نفسه ظلّت ذكراها في قلبي إلى زمن أطول. كان ذلك في تلك الأيام المشؤومة التي كنت فيها متغلغلاً في بيئات الأغنياء ورجال الأدب. فكان من أمري أن اضطررت إلى أن أقاسمهم ملذّاتهم المُكرِبة.

كنت في بلدة "شقريت" في الوقت الذي كان يُعيّدُ فيه لربِّ المنزل، وكان جميع أفراد أسرته قد التفّوا حوله ليحتفلوا بهذا العيد الذي جمع أسباب اللّهو وضروب المرح. لم يُدَّخر، في هذا العيد، ألعاب ولا مشاهد ولا ولائم ولا زينات. لم يكن فينا من يقوى على أن يتنفّس الصُّعداء ليريح نفسه، بل كنا نثمل من الفرح قبل أن نستسلم إلى اللّهو. وبعد العشاء ذهبنا نستنشق الهواء في الشّارع وكأنّنا كنا في موسم معرض، فالرّجال تنزّلوا فراقصوا بنات الشعب، ولكن السيدات احتفظن بوقارهن. وكان بعض الناس يبيع هناك الخبز الفطير، فبدا لشاب من زمرة الأصدقاء أن يبتاع من هذا البرشان ليلقي بالرغيف بعد الآخر في وسط الجمع، وامتلأت القلوب سروراً عند رؤيتهم أولئك القرويين يترامون على التقاطه، ويتزاحمون ويتساقطون على الحضيض لكي يلتقطوا قطع الخبز. فهنا، على الأرض، أرغفة متطايرة ذات اليمين وذات اليسار، وهنا شُبّان وشابات يتراكضون ويتراصُّون ويتدافعون بالأرجل، وكلّ ذلك كان يبدو محبّباً للجميع.

ففعلت مثلما فعلوا اقتداء بالناس عن حياء، وإن كنت، في باطني، لم أقاسمهم ذلك السُّرور. لكني، إذ تولاني الضّجر مما كنت

أعمله من بَذر الدراهم لحمل القوم على التّزاحم بالأرجل والأيدي، تركت للرّفاق المكان وانسللت أتنزّه وحدي في المعرض فلهوت بتنوّع الأشياء المعروضة. ورأيت فتاة صغيرة تحمل قُفّةً فيها نحو عشر تفاحات تحاول أن تتخلّص منهن. وكان رفقاؤها من أهل "سافوا" يريدون أن يحملوها على التخلُّص من تلك التفاحات، ولكن لم يكن معهم إلّا درهمان أو ثلاثة مما لا يكفي ثمناً لتلك التفاحات، وهذه القُفّة كانت ترمز إلى حديقة "هيسبريد"، والفتاة الصغيرة تمثّل التنّين الذي كان يحرِسها. فهذه الرواية وفّرت لي كثيراً من السّلوى. وكان ختامها أن وزّعتُ التفاحات على الصغار بعد أن أدّيتُ ثمنها. فتمتّعتُ حينئذٍ بمنظر أبهج المناظر التي يطرب لها قلب إنسان، منظر الفرح متّحداً بسلامة الطويّة وسذاجة العمر يفيض حوالي، لأن المشاهدين، إذ رأوا ذلك الفرح، اشتركوا فيه. وكنت أقاسمهم إيّاه بثمن بخس، فازددت فرحاً إذ أحسست بأن هذا كان من صنع يديّ.

فلمّا قابلت بين هذه التسلية وتلك التي تركتها، شعرت برضا للفارق بين الأذواق السّليمة والملذّات الطبيعية وبين تلك التي يولّدها التّرف والتي ليست إلّا ملذات تهكّم وأذواقاً فاسدة مقصورة على بعض الأفراد. أجل، أيّ قسط من اللذة يمكن الإنسان أن يتحصّل عليه برؤيته قطعاناً من البشر قد أذلّهم البؤس فترامى بعضهم فوق بعض، وتدافعوا بوحشية وكتم بعضهم أنفاس بعض، وكلّ ذلك لينتزع الواحد منهم بجشع بضع قطع من الخبز داستها الأرجل وغطّتها الوحول؟

وأما من جهتي فإني لما فكرت مليّاً في نوع الملذّات التي كنت

أذوقها في مثل هذه المناسبات، وجدت أنها ناتجة عن عاطفة السرور برؤية وجوه فرحة أقل مما هي ناتجة عن عاطفة الإحسان. وهذا المظهر له في نفسي فتنة يبدو أنها ليست إلّا شعوراً ولو كانت تنفذ إلى قلبي. وإذا أنا لم أرَ الرّضا الذي أسبّبه، فإني، وإن تحققت منه، فلن أتذوّق من لذّته إلّا نصفها. بل إن هذا هو عندي سرور نفسي نزيه لا غرض لي فيه، ولا هو متوقّف على النّصيب الذي قد يعود لي منه، لأن سروري برؤية وجوه فرحة في عيد الشعب هو الذي اجتذبني بقوة إليه. ولكن هذا الأمل المرجوَّ طالما مُني بالخيبة في فرنسا حيث تجد هذه الأمة التي تدّعي أنها مرحة جدّ المرح، لا تُظهر في ألعابها هذا السّرور النفسي. فكثيراً ما تردّدت قديماً إلى الحانة لأرى أبناء الشّعب يرقصون. ولكن تلك الرّقصات كانت جدّ كئيبة، مثيرة للنحيب، بعيدة عن اللباقة إلى حدٍّ كان يدفعني إلى أن أخرج من القاعة وأنا إلى الاغتمام أقرب منّي إلى الفرح.

وأما في جنيف وفي سويسرا، حيث الضّحك لا يتبخّر عن نكات جنونية ملؤها الخبث، فكلّ شيء يبدو فيه الفرح والسّرور في الأعياد. ولا يُظهر فيه البؤس وجهه الشّنيع، ولا التّرف غطرسته، وسعة العيش والأخوّة والاتحاد تعدّ القلوب للسّرور، وفي أكثر الأحايين، وفي نشوة الفرح، يتبادل الناس هناك التّحيات ويتعانقون، ويدعو بعضهم بعضاً إلى التّمتع معاً ببهجة الأعياد ومسرّات اليوم. وأما أنا، فلكي أنعم بلذّة هذه الأعياد المستحبّة، فلا حاجة لي لأن أكون من أهلها، بل يكفيني أن أراها، وإذا رأيتها أشترك فيها، وأنا على يقين بأنّه لا قلب أكثر فرحاً من قلبي بين هذه الوجوه الباشة.

ولئن لم يكن هذا إلّا لذّة أحساس، فإن له مع ذلك سبباً أخلاقياً

أدبياً، والدليل على ذلك أن هذا المنظر نفسه، بدل أن يرضيني ويروقني، يمكنه أن يُقطّع أوصالي ألماً واستنكاراً عندما أعرف أن سمات اللذة والفرح البادية على وجوه الأشرار ليست إلّا دلائل رضاهم عن خبثهم. إن الفرح الصّادر عن قلب صافٍ هو وحده الذي تُمالئ دلائله قلبي، فإن سمات الفرح القاسي الهازئ تُقلِقُه وتُغِمُّه ولو لم تتعلق بي، وهذه العلاقات، بلا شك، لا يمكن أن تكون هي أنفسها، متفرّعة من مبادئ مختلفة كلّ الاختلاف؛ ولكنها مع ذلك سمات فرح، وفروقها الظاهرة ليست متناسبة هي والحركات التي تُثيرها فيّ.

وسمات الألم والهمِّ أنا سريع الإحساس بها أكثر من سواها إلى حدٍّ أنّه يستحيل عليّ أن أتحمّلها من دون أن أرى نفسي متأثراً بانفعالات أشدّ اتّقاداً من تلك التي تُعبّر عنها هذه الانفعالات. وإذا عظّمَت المخيلة هذا الشّعور، فقد وحَّدت بيني وبين ذلك الكائن. إن وجهاً مستاءً هو أيضاً منظر لا أطيق رؤيته ولاسيما إذا كان لدي ما يدعوني إلى الظنّ بأن هذا الاستياء موجَّهٌ إليّ، ولا يسعني أن أذكر كم ابتزَّ مني من المال أولئك الخدم الكئيبة سُحَنهم، الدائم تذمّرهم، إذ كنت في البيوت التي جرّتني الحماقة إليها وحيث كلّفتني غالياً ضيافة أصحاب المنزل. ولقد كنت دائم التأثُّر بالأشياء التي تثير شعوري، ولاسيما بتلك التي تحمل طابع السرور أو الحزن أو العطف أو البغض، لذلك كانت هذه الانفعالات الخارجية تقودني من حيث شاءت من دون أن أتمكّن من التنصُّل منها إلّا بالفرار. إن إشارة، أو حركة، أو نظرة من مجهول، تكفي لأن تنغّص عليّ عيشي، أو تُسكِّن همومي. ولست ملك نفسي إلّا عندما أكون وحدي، وفي غير ذلك أراني ألعوبة جميع أولئك الذين يحيطون بي.

كنت أعيش، بالأمس، مسروراً في العالم عندما كنت لا أرى في جميع العيون إلّا عطفاً، أو، على أسوا الفروض، لا مبالاة، من جميع الذين كنت مجهولاً عندهم. وأما الآن، إذ أصبحوا لا يهتمون بإظهار وجهي للشعب ولا يبالون بإخفاء فطرتي عنه، فلا أستطيع أن أظهر في الشارع من دون أن أرى نفسي محوطاً بأشياء تملأ نفسي حسرات، فأستحثّ الخطى للوصول إلى البرية حالما تقع عيني على الخضراء. فهل يأخذني العجب إذا ما أحببت العزلة؟ لست أرى على الوجوه إلّا عداوة، والطبيعة تضحك لي دائماً.

على أنّي أشعر، مع ذلك، بلذّة العيش بين الناس ما دام وجهي مجهولاً منهم، ولكنّها لذّة لا يتركونها لي. ولقد كنت لاأزال منذ بضع سنوات أحبُّ أن أتنقّل في القرى وأن أرى صباحاً الحُرّاث يصلحون مدقّات القمح أو النساء واقفات على الأبواب مع صغارهم. هذا المنظر كان فيه ما لا أستطيع وصفه من صغيرات الأمور مما يأخذ بمجامع قلبي. كنت أقف مراراً من دون أن أعرف سبباً لهذا، فأجيل النظر في ما يعمله عادة هؤلاء القرويون الطيّبون فأحسُّ بالتنهدات تتصاعد من صدري، من دون أن أدري علّة ذلك، لا أدري أرأوني بادي الإحساس بهذا السرور العابر أم أرادوا انتزاعه مني. ولكن عندما لمحت في الوجوه تغيُّراً وفي النّظرات والهيئات تبدُّلاً، كان لا بدّ لي من أن أفهم أنهم قد عُنوا بكشف سرِّ تفيكري. وقد حدث لي الشيء نفسُه، في شكل أوضح، في "الأنفاليد". فهذا الأثر الخالد الجميل كان يثير دائماً اهتمامي، لأني لا أرى أبداً، دون تأثر واحترام، هذه الجماعة من الشيوخ الطيبين الذين يستطيعون أن يقولوا ما قاله فتيان "لقديمونيا": "لقد كنا في الأمس فتياناً، شجعاناً، ذوي جرأة".

وكانت إحدى نزهاتي المفضلة حول المدرسة الحربية. وكنت يسرُّني أن ألتقي هنا وهناك ببعض العجزة الذين، إذ احتفظوا بأدب الجنديّة، كانوا يُلقون عليّ التحيّة، في أثناء مرورهم. فهذه التحية التي كان قلبي يردُّها إليهم بالتي هي أحسن، كانت تطيب لي وتزيد في سروري برؤيتهم. وكنت لم أعتد كتمان ما يعنيني من الأمور، لذلك كنت غالباً ما أتكلّم على الشّيوخ العجزة، وعلى الأثر الذي يخلّفه مرآهم في نفسي. وبعد حين لحظت أنني أصبحت غير ذلك الرّجل الذي يجهلون، بل إنهم أمسوا يعرفونني أكثر من قبل لأنهم ينظرون إليّ اليوم بتلك العين نفسها التي ينظر إليّ بها الجمهور. لقد استبدلوا بالارتياح إلى رؤيتي نظرات وحشيّة ووجوها يقرأ فيها النُّفور والكراهية. إن الصّراحة القديمة التي يتميز بها أمثالهم من رجال الجندية لم تكن توفّر لهم، كالآخرين، قناعاً من الاستهزاء والخيانة يقنعون به عداءهم، بل إنهم أظهروا لي، بوضوح، أعنف بغض، حتى لقد بلغ من شدّة بؤسي أني كنت أُضطرُّ إلى أن أختار منهم ذلك الذي كان من بينهم أقلّ مقدرة من غيره على إخفاء حنقه، كيما أُخِصّه بتقديري.

ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أجد إلا لذة قليلة في التنزُّه على مقربة من "الأنفاليد". ومع ذلك، كانت عواطفي حيالهم غير مرتبطة بعواطفهم نحوي، لأني لا أرى أبداً، دون أن أشعر باحترام واهتمام، هؤلاء المدافعين القدماء عن وطنهم! ولكن يصعُب عليّ ألّا أعامَل بالمثل وقد أنصفتُهم. فإن قابلت مصادفة رجلاً منهم قد تملّص من التعليمات المشتركة أو لم يرَ قطّ وجهي فأمسك عن أن يُظهر لي كراهية، فإن تحيّة هذا الرجل المستقيم تكفي لأن تُعيضني عن وجوه الآخرين المتجهّمة. إنّي أنساهم كي لا أشغل نفسي إلّا به وكي أتصوّر أن له نفساً

مثل نفسي، لا تقوى البغضاء على أن تتسرب إليها. لقد نعمت أيضاً بهذه اللذة في السنة الماضية عند عبور النهر للتنزُّه في جزيرة "السين" (البجع). فإن شيخاً من هؤلاء العُجَّز كان ينتظر دوره في المركب ليعبر الجزيرة، فتقدّمت، وأشرت إلى الربان أن يقود زورقه، وكان التيّار شديداً والمسافة طويلة، وكنت لا أكاد أجرؤ على أن أوجّه كلامي إلى العاجز خشية أن يُغلظ لي في القول، ويتحوَّل بوجهه عني، ولكن أمارات الطّيبة البادية على وجهه هدّأت روعي.

وتحدّثنا فظهر لي أنه مُتمتِّع بحسن الإدراك والأخلاق، فدُهشتُ وسُررت من بشاشته وصراحته، وما كنت معتاداً أن ألقى من الناس مثل هذه المجاملة، ولكن دهشتي زالت لما عرفت أنه قادم توّاً من الرّيف. فأدركت أنهم لم يُروه بعد وجهي ولا أطلعوه على التعليمات الموجّهة إلي. واغتنمت فرصة هذا التنكُّر لكي أتحدَّث بعض الوقت مع رجل ما، وقدّرت، بما أحسست به من اللذة في حديثه، الثّمن الذي يمكن أن تزيده ندرة هذه اللذات البسيطة في قيمة هذا الحديث.

وعند مغادرة المركب أخرج من كيسه أجرة السّفر، فأديت عنه القيمة المطلوبة ورجوت منه أن يحتفظ بدرهميه وأنا أخشى أن أمسّ كرامته. ولكن هذا لم يحدث بل كان العكس، إذ بدا الرجل متأثراً من لفتتي. ولاسيما عندما أعنتُه على النّزول من القارب، لأنه كان أسنَّ مني. فمن ذا الذي يُصدِّق أني بكيت ارتياحاً كما يبكي الأطفال لما فعلته؟ وكنت أتمنى لو استطعت أن أضع في يده بعض الدريهمات لأمكّنه أن يشتري قليلاً من التّبغ، ولكنني لم أجرؤ على ذلك، فإن الحياء الذي طالما شلَّ يدي عن أن أعمل الخير، كثيراً ما كان يمنعني،

وإن ما كان يملأ قلبي فرحاً في ذلك الوقت هو ما صرفني عن ذلك وتركني آسفاً لِما بدا مني من غباء.

ولكني في هذه المرة، بعد أن تركت صديقي العاجز، كنت أعزّي نفسي بأني كنت خالفت مبادئي لو أني قبلت ثمناً لعمل نبيل قمت به، وذاك مما كان يحطُّ من قيمة هذا العمل ويلوّث التجرُّد الذي أبديته في هذه المناسبة. على المرء أن يخفَّ إلى مساعدة المحتاجين، ولكن في المعاملات العادية، المتواضع عليها بين الناس، يجدر به أن يترك العطف الطبيعي وحسن التصرّف يعملان عملهما من دون أن يختلط بهذا الينبوع الصّافي شيء قابل للبيع والشّراء يعكّر هذا الينبوع ويفسده. ولقد قيل إن الشعب في هولاندا يتقاضى أجراً منك لكي يُنبئك عن أيّ ساعة من الوقت أنت حينئذٍ، ولكي يَدُلَّك على الطريق، فيا له من شعب محتقر، ذاك الذي يُتاجر هكذا بأبسط الواجبات الإنسانية.

لقد لاحظتُ أن أوروبا وحدها هي التي تبيع الضيافة، ففي آسيا كلّها يُقدَّم لك السّكن مجاناً ولو أن جميع أسباب الرّاحة لا تتوفّر هناك للإنسان. ولكن، أليس كافياً أن يقول المرء في نفسه: أنا إنسان، ويُضيفني إنسانيون؟ وإنما هي الإنسانية الخالصة تشمَلني. فالذي ألقاه من ضئيل الحرمان لا أجد فيه مشقّة إذا كان قلبي يُصيب من المعاملة خيراً مما يُصيب منها جسدي.

النزهة العاشرة

اليوم هو يوم أحد الشّعانين. لقد مرّت خمسون سنة بالضّبط على أول لقاء بيني وبين السيدة دو فارينس، وكان لها من العمر يومئذ ثمان وعشرون سنة، لأنها ولدت في مُستهلّ القرن[1]. لم أكن بعد قد بلغت من العمر سبع عشرة سنة، وكانت طبيعتي الآخذة في النشوء والتي كنت لاأزال أجهلها، تولّدُ حرارة جديدة في قلب مليء بالحياة بفطرته. فإذا كان عجيباً أنها حملت عطفاً على شاب متوقّد ولكنه وديع، ذو حياء ووجه لطيف، فمن الأعجب أن تثير في النّفس امرأة، ذات فتنة وظرف وفهم، أرقّ عواطف الحنان، وتوحي بأصدق شعور بالجميل.

ومما لا يُتوقّع حدوثه، عادة، أن هذه هي الآونة الأولى التي قد قررَتْ مصيري إلى منتهى حياتي، بتتابع من الأحداث لا مفرَّ منها. أن

(1) كان أول لقاء يوم أحد الشعانين سنة 1728، كما ورد في كتابه الاعترافات، وتدل الأرقام على أن عمرها كان تسعاً وعشرين سنة لأن السيدة دو فارينس ولدت سنة 1699. وأما روسو فقد ولد في 28 حزيران/ يونيو سنة 1712، فلم يكن إذن عمره سبع عشرة سنة، وإذا كان أحدهما يودّ أن يعود إلى شرخ الشباب، فإن الآخر قد أصبح يعتقد أنه أسنّ مما كان حقيقة.

نفسي التي لم تكن بعد أعضائي قد أنمت منها القوى، ما كانت قد اتّخذت بعد خلقة معينة، بل كانت تنتظر بذاهب الصّبر الوقت الذي فيه تُستكمل هذه الخلقة، وهذه الآونة التي عجّل حلولها في هذا اللقاء، لم يأزف مع ذلك وقتها سريعاً. وفي سذاجة الأخلاق التي لقّنتني التربية إيّاها، رأيت أن هذه الحال تطول بي وأعني بهذا تلك الحال اللذيذة التي تمرُّ سريعاً، والتي فيها يسكن الحبُّ والبراءة معاً في القلب نفسه. لقد كانت أبعدتني عنها[2] وكان كلّ شيء يذكرني بها، فكان لا بدّ من العودة، وهذه العودة حدّدت مصيري، وقبل أن تصير هي ملكاً لي بزمن طويل، أصبحت لا أعيش إلّا بها ولها. واأسفاه! لو أني كنت كَفَيت قلبها مثلما كانت تكفي قلبي، فكم من سنين حلوة وهادئة كنا تركناها تنقضي معاً! لقد أمضينا سنيناً كمثل هذه، ولكنها كم كانت قصيرة تمرُّ مرّ السحاب! وأي مصير تلاها؟ وما من يوم لا أذكر فيه بفرح وحنان هذا الوقت الفريد القصير من حياتي إذ كنت "أنا" إياي بكامل ذاتي، دون امتزاج ولا حائل، فيمكنني أن أقول أنني عشت في ظلاله كلّ العيش. ويمكنني أن أردّد على وجه التقريب قول ذلك الحاكم قائد الحرس الروماني الذي، لما أُقيل من منصبه في أيام ولاية القيصر فيسباسيان، ارتحل عن المدينة إلى الرّيف ليُمضي فيها بقية أيام حياته فقال: "لقد أمضيت سبعين سنة على الأرض وعشت منها سبعاً"؛ ولولا هذه الفسحة من العمر القصيرة الثمينة، فلربما

(2) كي يهتدي إلى الكثلكة في "تيران" بإيطاليا، ومن المعلوم أنه، بعد أن عمل في وظائف كثيرة واكتسب صداقة بعض الأشخاص، هجر فجأة، في السنة التالية منزل الكونت دوجوفون في تيران وهام على وجهه متسكّعاً في الطريق مع صديقه باكل. وهكذا عاد إلى آنسي عند السيدة دو فارينس.

كنت لاأزال متردِّداً في معرفة من أنا، لأني، وأنا الضّعيف المحروم قوة المقاومة، كنت، طول حياتي، رجلاً تهزّه أهواء الآخرين وتجرّه وتجتذبه، حتى أمسيت سلبياً غير عامل، في حياة تتقاذفني فيها العواصف، فاستحال عليّ أن أميّز ما هو مني، في مسلكي الخاص، وكلّ ذلك لأن الضرورة القاسية لا تنفكُّ تُرهِقني بثقلها. ولكن في أثناء هذا العدد القليل من السنين، إذ كنتُ تُحبُّني امرأة مليئة تسامحاً وعذوبة، فقد فعلت ما أريد أن أفعله، وكنت ما أريد أن أكون. وباستعمال أوقات فراغي كما أريد، وبفضل مُثُلها ودروسها، عرفت أن أجبل نفسي، أنا المخلوق السّاذج الجديد، بالجبلة التي كانت تلائمني أكثر من غيرها والتي لاأزال أحتفظ بها. ثمّ إنّ الميل إلى الوحدة والتأمّل ولّد في قلبي عواطف الحنان، هذه التي خلقت لتكون غذاء هذا القلب. فالضّجيج والضوضاء يُضيّقان على هذه العواطف، ويكتمان أنفاسها، والهدوء يُذكيها ويثيرها. أنا في حاجة لأن أستجمَّ وأخلو بنفسي كما أحب. لقد حرّضت من أناديها تحبُّباً باسم "ماما" على أن تعيش في الريف، وكان ملجؤنا منزلاً منفرداً على منحدر وادٍ، وهناك، في مدة أربع سنوات أو خمس، نعمتُ بدهر من الحياة والسعادة النقيّة المليئة التي تغطّي بفتنتها جميع ما لمصيري الحاضر من بشاعة. كنت في حاجة إلى حبيبة وفق قلبي فملكتها، وصبَوتُ إلى سُكنى الريف فسكنته. كنت لا أتحمّل الاستعباد، فعشت حرّاً تمام الحريّة لأني، إذ كنت تستعبدني مودّاتي وحدها، فقد كنت لا أعمل إلّا ما أريد عمله[3]. كانت تملأ وقتي كلّه ضروب العناية والعطف أحوط بها من أحب، أو أعمال في الحقول. لم

(3) تاريخ هذه الحوادث الذي كان متنازعاً فيه هو صحيح في مجموعه. فقبل أن تستأجر السيدة دو فارينس شارمت سنة 1738 استأجرت المنزل منذ سنة 1736.

أكن أشتهي شيئاً آخر سوى استدامة الاستمتاع بحالة قد بلغت منتهى العذوبة، وكان همّي الوحيد خوفي ألّا تدوم هذه الحال.

وهذا الخوف، وليد الشعور بالضّنك والضّيق لما نحن فيه، كان له ما يسوّغه. ومنذ ذلك الحين رأيت أن ألتمس لنفسي مخرجاً يشغلني عن هذا القلق، وموارد أتفادى بها عواقبه. كما رأيت أن مدّخرات من المواهب أدّخرها، كانت آمنَ موردٍ أتّقي به الفاقة، وعقدت العزم على أن أقضي أوقات فراغي في الاستعداد، إن أمكن، لأن أرُدَّ يوماً، إلى خير النساء، العون الذي تلقيتُه منها.

En conformité des règlements de l'Unesco
et des statuts de la Commission
cette traduction du livre
"Les rêveries du promeneur solitaire"
De J.-J. Rousseau a été revue
Par
Khalil Ramez Sarkis

Commission Libanaise pour la traduction
Des chefs-d'œuvre:

Collection Unesco D'œuvres représentatives
Série arabe
Ouvrage publié en vertu
d'un accord conclu entre l'unesco
et la commission libanaise
pour la traduction des chefs-d'œuvre

Collection unesco d'œuvres représentatives

Série arabe

J.-J. Rousseau

Les rêveries du promeneur solitaire

Traduit du français en arabe

Par

Boulos Ghanem

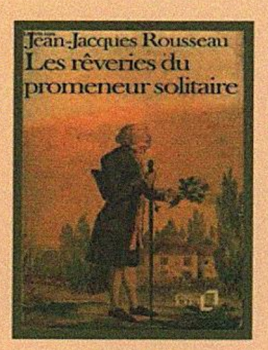
Commission libanaise
Pour la traduction des chefs-d'œuvre
Beyrouth
1983

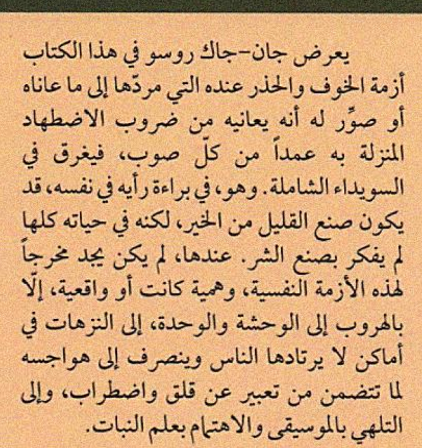
Distribution: Librairie orientale, B.P. 1986, Beyrouth, liban

Les rêveries
du promeneur solitaire

الفهرس

هواجس
المتنزّه المنفرد بنفسه





يعرض جان-جاك روسو في هذا الكتاب أزمة الخوف والحذر عنده التي مردّها إلى ما عاناه أو صوِّر له أنه يعانيه من ضروب الاضطهاد المنزلة به عمداً من كلّ صوب، فيغرق في السويداء الشاملة. وهو، في براءة رأيه في نفسه، قد يكون صنع القليل من الخير، لكنه في حياته كلها لم يفكر بصنع الشر. عندها، لم يكن يجد مخرجاً لهذه الأزمة النفسية، وهمية كانت أو واقعية، إلّا بالهروب إلى الوحشة والوحدة، إلى النزهات في أماكن لا يرتادها الناس وينصرف إلى هواجسه لما تتضمن من تعبير عن قلق واضطراب، وإلى التلهي بالموسيقى والاهتمام بعلم النبات.

النزهات التي كان يقوم بها "حالماً" كانت تستثير عنده مشاعر عميقة ملأى بـ "الهواجس". كان يتلذذ بالنزهات لأنها توافق كسله الجسدي من حيث الابتعاد عن كل عمل مصمّم، وتتناغم مع غزارة مخيلته وتدفق رعشاته.

- **جان-جاك روسو** (1712-1778): من أعظم كتّاب اللغة الفرنسية ومن أعلام الفلسفة السياسية الحقوقية، ساعدت فلسفته في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. من مؤلفاته: *Le contrat social* (1762), *Les confessions* (1782).

- **بولس غانم**: كاتب، ترجم بعض أعمال جان-جاك روسو، منها: **خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر**.

- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة


ISBN 978-614-434-077-6
9 786144 340776

الثمن: 14 دولاراً
أو ما يعادلها